منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2423) السنة التاسعة - الاربعاء (14) آذار 2012

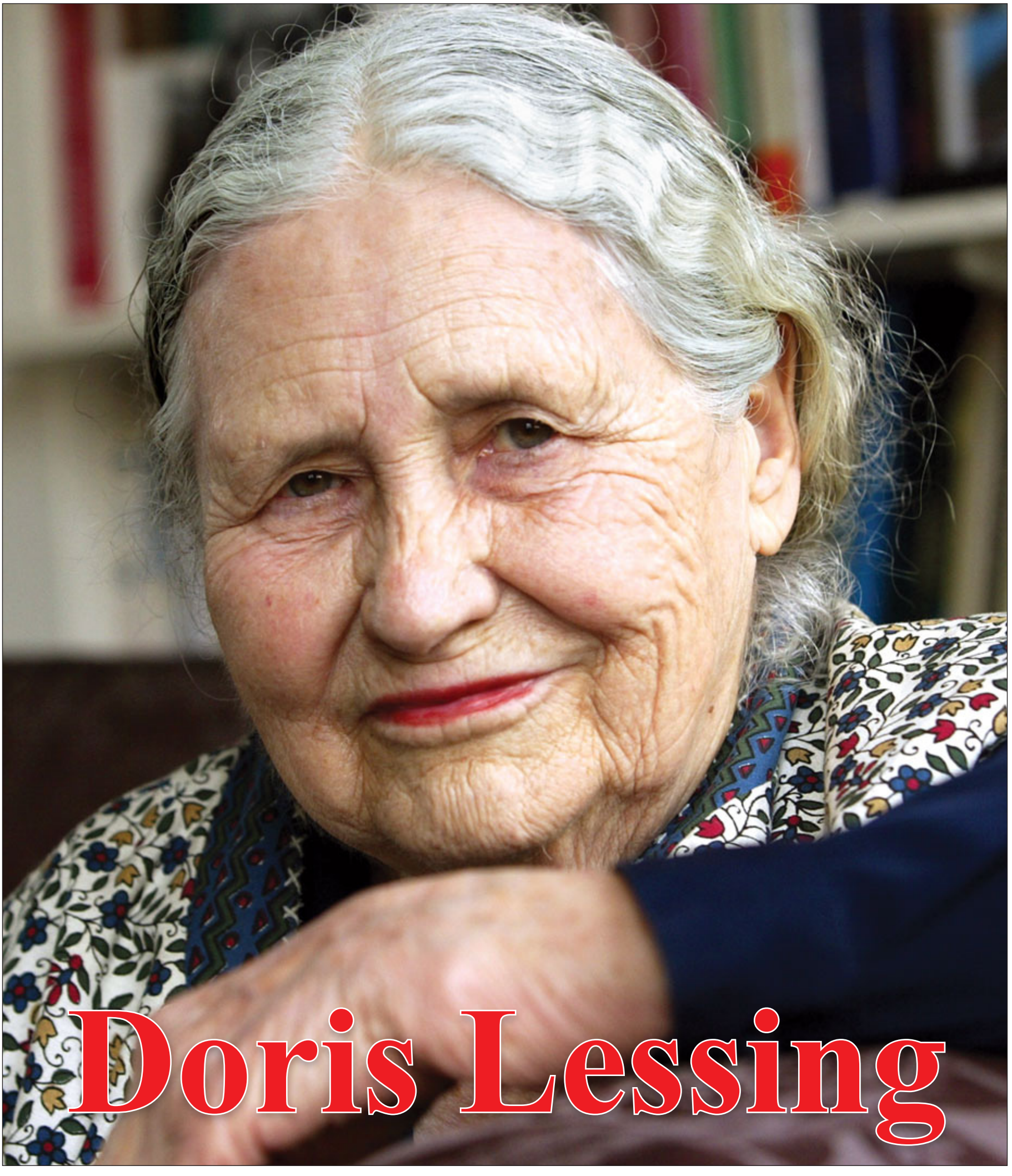

Doris Lessing

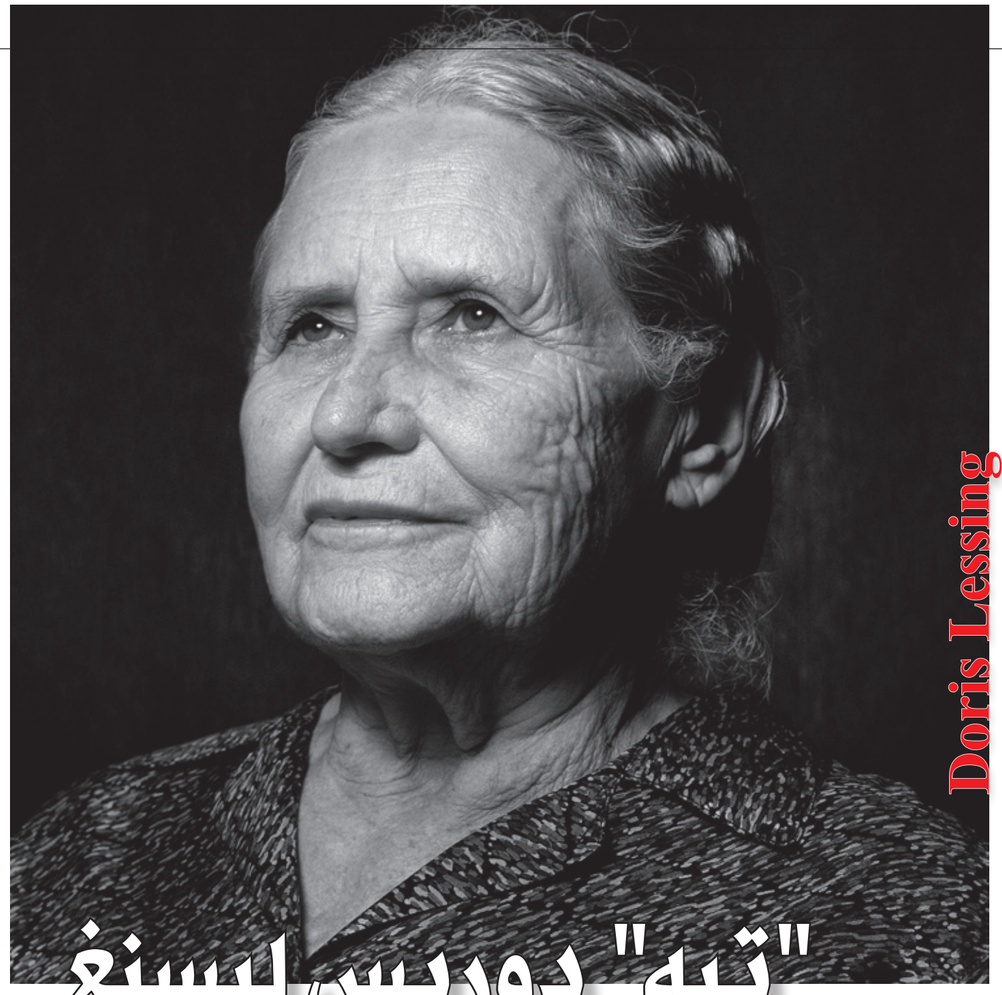

"تيه" دوريس ليسنغ

علي حسين

عجوز بريطانية كانت ولاتزال شاهدة على قرن من الزمن بكل تناقضاته وتقلباته.. حياة ابتدأت من الحرب العالمية الاولى وامتدت لترى افول نجم الشيوعية التي امنت بها في بداية حياتها لتشاهد على شاشات التلفاز كيف انهار جدار برلين.. سنوات طويلة من زمن الامبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس الى زمن غوردن براون الذي قرران يغيب عن العراق.. امرأة كتبت ضد العنصرية والاستعمار وناضلت في سبيل فضح جرائم التعرض العنصري واضطهاد المراة وعجوز لاتعرف سوى الادب طريقا للحياة كتبت بقسوة ضد الاستعمار والراسمالية والجرائم التي ترتكب باسم الديمقراطية وخاضت معارك لاتنتهي في سبيل الحركة النسوية ناتيها نوبل بعد ان سأمت من كل شيء وقررت ان تعتزل الكتابة رافضة عرض الملكة البريطانية بمنحها لقب سيدة الامبراطورية البريطانية حين ردت على صاحبة العرض بان الامبراطورية لم تعد موجودة.. امرأة عاشت حياة اشبه برواية من رواياتها فما بين مولدها بأيران سنة ١٩١٩ من ابوين بريطانيين لأب كان يعمل نقيبا في الجيش وام تمارس مهنة التمريض فتحت عينها لتجد الاب وقد اصيب في الحرب العالمية الاولى فخرج منها مبتور الساق.. لايحظى بحب امها وانما بعطفها.. يعشق المغامرة وينتظر ان يرحل باسرته ليبحث عن الثروة والحياة الجديدة..في جنوب افريقيا عاشت دوريس حياة شاقة جعلتها تقول عنها في مذكراتها بانها كانت سنوات الخيبة لكنها تحملتها بشجاعة وكبرياء كانت طفولتها كما تصفها جرحا مفتوحا يسير على قدمين مما دفعها ان تجعل معظم ابطال رواياتها يعيشون حكايات صعبة وذكريات اليمة مع سنوات الطفولة.. تعترف ان وعيها تفتح حين قررت ان لاتكون مثل والديها الرجل المقعد والمراة المريضة بالوساوس.. الا تقع في شرك النمطية غدت في داخلها روح الثورة والتمرد على الاوضاع وتعترف:لقد صنعت لنفسي يوتوبيا خاصة كان الادب جزءاً منها اردت ان اقول للعالم ماذا لو جعلنا الظلم والفقر والحرب امورا مستحيلة بالتاكيد ان الحياة سوف تكون اجمل وتمتلىء بالناس الرائعين.. تقرر ان تعيش حياة التمرد على سلطة الام المهووسة بالنظام واحترام التقاليد فتهجر مدرسة الراهبات في الثانية عشرة من عمرها ثم بيت اهلها وهي في الخامسة عشرة من عمرها لتعمل مساعدة ممرضة، تقرأ الكتب التي تستعيرها من الاصدقاء.. انها سنوات الضياع والحرية والحب. في بداية الثامنة عشرة من عمرها تتزوج من احد زملائها في العمل. وفي الحياة الجديدة سوف تجد مجتمعا متغايرا تواصل من خلاله السعي لتجد ذاتها تنضم الى الدوائر السياسية وتعتنق الافكار اليسارية ويدفعها حبها للحياة الى مغادرة مجتمع جنوب افريقيا لتبحر صوب لندن فتصلها في العام ١٩٤٩ وهي تحمل معها طفلا رضيعا ومسودة اولى روايتها (العشب يغني) التي تروي فيها حكايات عن التمييز العنصري في جنوب افريقيا.. وتنشر الرواية عام ١٩٥٠ لكن كان على دوريس ان تنتظر دزينة من السنوات حتى يحتفي بها الوسط الثقافي في لندن بعد ان تقدم روايتها (المفكرة الذهبية) التي صنعت شهرتها الادبية وقدمتها كواحدة من المناضلات في سبيل حرية المراة من خلال تقديم شخصية امرأة عصرية بعمق وتفصيل كبيرين.

مرحلة السبعينيات والثمانينيات مثلت تطورا جديدا بالنسبة لدوريس حيث تحولت كتاباتها الى مرحلة النضوج والتامل عبرت عنها رواياتها (بيان مجز وخماسية العنف ومذكرات من نجا والحب مرة اخرى وتقرير عن الجحيم) حكواتية للتجربة النسائية من الطراز الرفيع روتها بدقة وشفافية بدءا من الارهابية عن امرأة برجوازية ضجرت من حياتها والتحقت بصفوف الجيش الايرلندي الى (الجدات) عن سيدتين كل منهما تعيش قصة حب مع ابن الاخرى وصولا الى اعذب الاحلام التي تقدم لنا فيها نفسها بانها المراة القادرة على تصوير اوضاع العالم بلغة شفافة، انها المرأة التي تركت كل شيء..الاهل والمدن والايديولوجيات لتكتشف الحياة بصورة اكثر نقاء ولتؤكد لنا وهي في الثامنة والثمانين من عمرها ان الابداع لايشيخ وان الموهبة الحقيقية تظل ساطعة طوال السنين.

×××

يكاد القراء العرب يجهلون ادب ليسنغ فصاحبة الخمسين كتابا لم يترجم من اعمالها سوى القليل وقد اصدرت دار المامون في منتصف الثمانينيات ترجمة لروايتها (مذكرات من نجا)وفي نهاية التسعينيات نشرت دار الهلال ترجمة لروايتها الاولى (العشب يغني) وبالفترة نفسها تقدم احدى دور النشر على نشر ترجمة لروايتها الشهيرة (المفكرة الذهبية) الا ان الغريب في الامر ان القارىء العربي تعرف على دوريس الكاتبة المسرحية قبل ان يتعرف على الروائية فقد نشرت سلسلة المسرح العالمي عام ١٩٦٦ ترجمة لمسرحيتها الشهيرة (التيه) وهي المسرحية التي قدمتها للمسرح عام ١٩٥٨ لتنظم من خلالها الى جيل مسرح الغضب الذي اطلق صرخته (جون اوزبورن) صاحب المسرحية الشهيرة (انظر الى الماضي بغضب) والتي عبر فيها عن الضياع لجيل ما بعد الحرب في بريطانيا. هذا الجيل الذي شهد بشاعات الحرب وخلوها من أي نوازع إنسانية في هذا المناخ تتقدم دوريس للمسرح لتقدم مسرحيتها الاولى والتي عبرت فيها عن الصراع الذي يقوم في المجتمع بين جيل الغضب وجيل السياسيين المتزمتين وهي لاتفقد معاني طرف لكنها تقدم صورة حية ونابضة لهذا الصراع. فالام (ماريا) عضو في كثير من الهيئات التي تناضل لنصرة قضايا الدفاع عن السلام تجد نفسها في المواجهة مع ابنها (توني) الذي يقرر الذهاب الى الحرب من اللحظة الاولى نرى ملامح الصراع فالام تشكر الظروف التي لم تجعل ابنها يذهب الى الحرب وتقول:-ربما كنت قتلت من اجل قضية لاتؤمن بها فيرد الابن:- ان يقتل الانسان من اجل شيء يؤمن به هذا بالتاكيد نوع من الترف في هذه الايام. شيء كان يتمتع به جيلك ام الان فالانسان يقتل فحسب.هكذا يعبر جيل توني عن خيبة الامل في كل شيء.

تنشدونها.. يا الهي نحن ننجب جيلا حقيرا يحسب معاشه قبل ان يتخرج من المدرسة. جيل من صغار البرجوازيين الفقراء نعم انا ابكي لقد عشت خمسين عاما اليس هذا وحده سببا كافيا للبكاء.

توني: افترضي اننا قلنا للسياسيين نحن نرفض ان نكون ابطالا لقد سئمنا كل القضايا النبيلة فماذا سيحدث يا امي؟

ماري: لاشيء.. الحياة العادية والامان

توني: اتركونا وشأننا هذا ماسنقوله.. اتركونا نعيش لانريد الا ان تتركوننا وشاننا

وكان العجوز البريطانية تتحدث بلسان العراقيين حين صرخت في وجه توني بلير: اتركوهم وشأنهم يعيشون لانريد سوى ان تتركوهم وشأنهم.

مذكـــرات مـــن نجـــا..
الســـــرد ولعبـــــة الإيـهـــــام

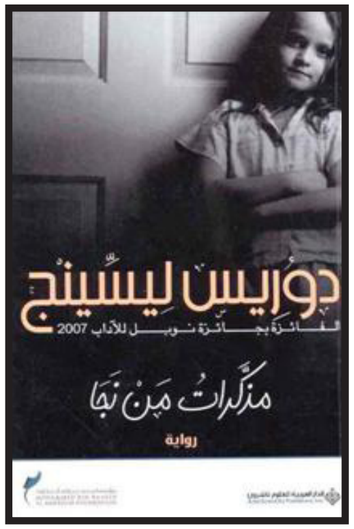

تتوخى صانعةُ الخطاب تغيير نسق البناء الحكائي متجاوزةً اطار التسلسل التقليدي للحكاية خصوصاً أنَّ خطابها (مذكرات مَن نجا) (×) يكاد يكون من الخطابات الروائية التي يمكن وضعها في خانة أدب السيرة ؛ إضافة إلى أنها تتجاوز عمادي الرؤى في البناء السردي اللذين أكدهما تودوروف على أنهما "رؤية من الداخل"، وأخرى "من الخارج" وفيهما تكون الشخصية واضحة العلم لدى الراوي بما تبوح له هذه الشخصية، أو أنها غير معروفة لديه وإنما هو يتولى توصيفها من الخارج فحسب. هذا التجاوز لهذين العمادين يتم باتباع ليسنغ لعبة ذكية، تلك هي لعبة الايهام التي سنأتي على ذكرها.

زيد الشهيد
قاص وروائي عراقي

تجري أحداث الرواية في كينونة مكانية محدودة لا تتعدّى شقّة صغيرة في عمارة تطل على شارع لمدينة على وشك التعرّض لهجوم من عصابات تنوي استباحتها (سنرى أن الرواية تنتهي دون أن يحدث أي هجوم). مدينة أبعدت صانعة الخطاب متلقيها من معرفة هويتها حتى الصفحة ١٩٧ حيث يكتشف أنها تُجري في احدى مدن الدول الافريقية المستعمَرة التابعة للامبراطورية البريطانية باشارة تفضحها صورة ملكة بريطانيا معلقة على جدار بزيّها العسكري مثلما جعلت زمن الاحداث عائماً مع انها احداث انعطافية كبيرة تتمثل برعب الناس من اخبار مفزعة ترد عن قرب وصول عصابات للقتل تُفتك بسكان المدينة، ولا يهم الراوي أو الروائية التحرك بعيداً لكشف ما يتمثل خارج ذلك من تضاريس ولا حركة أناس يشكلون خيوطا ذات أهمية في نسيج السرد رغم ان بعض الحركة تتم خارج اطار الشقة في حالة استطلاع مكاني لبعض الاماكن. وحتى الشخوص ظلت محدودة تتحرك على ارضية الخطاب الروائي مقتصرة على الراوية وأميلي ومعهما كلب الأخيرة الذي يشبه القطة أو القطة التي لها شكل كلب ركّزت صانعة الخطاب الكثير على اوصافه الغريبة وهي لعبة ايهامية ستندرج ضمن خطتها الايهامية التي سنراها تأخذ حيزا مهمًا في العمل الروائي عبر تشظي صورته في المخيلة بأن المخلوق لم يكن كلبا ولم يكن قطة في الوقت نفسه ؛ سابغةً عليه – في مجريات السرد – صفة الانسنة ومتعاطفة معه كحيوان يمتلك شعوراً انسانياً لكننا نضطهده كما نضطهد الحيوانات الاخرى بتطويعها لخدمتنا وتنفيذ مآربنا. وتتعدّى حدود فعل الشخصيات إلى شخصيتين أخريين هما (جيرالد) الذي تتعلق به أميلي و(جون) الفتاة في التاسعة من عمرها التي ستظهر في مجموعة جيرالد وتختفي مع مجموعة راحلة عن المدينة.

ثنائية الفوضى والنظام.. شرة تشويه الحياة

يتجه السرد لتقديم صورة استتباب الفوضى وهي تزيح أبجدية النظام وتتسيّد عليه فيخلق هذا السرد في وعي او لا وعي المتلقي سوداوية الموقف ويحدو به صوب ناحية بيان معادلة تطرح التناقض بين فوضى داعرة تناهض النظام المتّسق. حياة لا استقرار فيها انتفت داخلها سيادة القانون والحفاظ على الحريات وصونها. وحين يغيب النظام تغدو شريعة الغاب هي المتسيدة ويصبح الانسان في حالة من التهجس والخشية والاستنفار الدائم واضعاً في حسبانه أن المفاجأة السيئة كامنة في أيونات اللحظة وأن هذه الايونات قد تتشظى وتندلع جالبة المآسي مجاميع من عصابات لا رادع لها تتحين الفرص للانقضاض على المدن واستباحتها. وتعرض الراوية كيف أن مجاميع الفتيان وبلا وازع يقتحمون المحال والابنية التي تركها أصحابها فينتهكون حرماتها بالسرقة وجلب المسروقات دون الشعور أن هذا الفعل يدخل في دائرة المحرمات والمرفوضات.. وفي الفوضى تطيح الهيبة بالتحضر ورموزه ويعود الزمن القهقري إلى عصور التخلف والجهالة ؛ ففي الآن الذي كان ثمة فندق للرفاه يعرض الوجه الأمثل للسياحة وصناعة الابتهاج وقت سيادة القانون فإنّ هذا الفندق أحتلّ واستُبيحَ بفعل صُنّاع الفوضى، فغدا لافتةً للتأسي وشعار لدونية الغوغاء مطعونا بالا نظام ومملوءا بمسروقات تعبّر عن انتهاك الملكية واستلاب الحقوق وسط فضاء تقصّدت صانعة الخطاب في جعله حاراً ومغبراً كشفرة دلالية لمدلولية سلبية الاجواء وضبابية حياة لا تمت للواقعية الحضارية: " عند النظر إلى المبنى الشاهق الذي ينتصب اليوم إزاء سماء حارة جدا ومغبّرة، فنه يبدو مهلهلاً ومرقّعاً. فالنوافذ محطمة أو مندفعة إلى الداخل بينما الطوابق العليا مليئة بالاجهزة." (...) وكانت بعض الصفائح المعدنية المائلة تلوح من نوافذ أخرى وتشبه نسيج العنكبوت عند النظر إليها من الشارع. وكانت هذه في حقيقة الامر عبارة عن أوتار مختلفة الانواع وقد عُلّق عليها غسيل ذو ألوان متباينة." ص١٩٤

يتّخذ التعاون والاصطفاف الاجتماعي والتقارب الحميمي ثيمةً أساسية تعبّر عن الغريزة البشرية – أو هي غريزة المخلوقات ذوات الاحاسيس عامة – القاضية بالتجمّع ومواجهة الاقدار والاخطار والمحن المحتملة. تتجمّع زمرة اجتماعية بفعل فقدان الأمان والشعور بأنّ خطراً داهماً سيأتي. لا محال. هذا الأمر يهتم به أكثر الفئات العمرية حماسة في الانسان ألا وهي الفتوّة. والفتيان هنا يأخذون على عاتقهم هذا الفعل الجماعي في ادارة الشؤون اليومية فتراهم الراوية في الشارع وعلى الرصيف، يلتقون " منهمكين في الأكل والشرب ويتحركون بين قبائلهم وحلفائهم ". ص٢٢٨. وتفيض الراوية بالسرد عن هكذا ثيمة، جاعلةً (جيرالد) الفتى في وضع قيادة مجاميع الفتيان والفتيات وتمشية متطلبات الحياة المفروضة سيما والذين تتناولهم صانعة الخطاب بمثلون شريحة أطفال فقدوا الأب والأم أو اي معيل أو أنّ الآباء والامهات تركوهم". كان أكبرهم سنّاً في التاسعة أو العاشرة. وبدوا وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن والديهم، أو عن نعومة الحياة العائلية. ولد بعضهم في محطات الانفاق وتُركوا هناك. كيف نجوا من الموت؟ لا أحد يعرف. " ص٢٦٢ إنّ الدخول والانغمار مع هذه الزمرة والتحرك مع سياق حياتهم اليومية يعيد إلى الذاكرة خطاب (أله الذباب) الروائي لوليم كولدنك وهو يسرد حياة مجموعة فتية وجدوا أنفسهم في جزيرة بعد أن تحطمت طائرة ركاب كانوا يستقلونها وموقف يستدعي التكيّف مع الواقع ومواجهةً الاحتمالات والعمل على استمرارية الحياة بدافع الوصول إلى مخرَج يوصلهم إلى بر أمان بأقل الخسائر وبأفضل الظروف.

وفي حثيث الاحداث وتوالي الزمن بالايام – نهارات وليالي – يتولى السرد الكشف عن دواخل (أميلي) وهي تتعلق بجيرالد داخلة حقبة الفتوة المقترنة من المراهقة حيث العيش في حالة تأرجح ولا استقرار. فتارةً تقدمها الراوية كراصدة سردية في حالة من الجذل والانشراح فيما تشهدها تارة أخرى في مزاج سيء: تتعذب وتبكي تتألم وتكبت.

وفي خضم هذه الفوضى الاجتماعية والا استقرار في الجانب السياسي تهبط صانعة الخطاب درجات السلم الاجتماعي لتصف لنا طبيعة عائلة مستلة من نسيج العائلات التي تعيش في درك الاهمال والتي وجدت نفسها شأن الكثير من العائلات في حياة اجتماعية يومية تحت ظل نظم سياسية لا تدرك مسؤولياتها التاريخية، بل هي تعيش خارج اطار التاريخ المعاصر مفتقدة لأبسط مقومات النظم التي تدير دولة لها هيكليتها الادارية القادرة على ادارة مجريات شعب قيض لأفراده أن يعيشوا تحت مظلة المستقبل المجهول. تلك العائلة التي اطلقت عليها اسم (ريان) تتشكّل من ١٣ فرداً يعيشون في غرفة واحدة بلا معيل يتولى تمشية مستلزمات الاعالة الحقيقية ومتطلباتها. فالأب سكير والأم تعاقره الخمرة ما يجعل الابناء يمتهنون السرقة رغم صغرهم. وتسلط صانعة الخطاب عبر راويتها الضوء على تفاصيل حياة يومية هي من الترهل ما يجعل النتائج محتملة لتوفر اسباب الحصول: " لا مبالون، لا مسؤولون، بلا مستقبل وبلا تعليم وغير قابلين للتربية – وإذا كان باستطاعتهم قراءة اسمائهم وكتابتها فذلك أمرٌ حسن. خسيسون ومحبطون ومنحرفون ولكن ماذا نتوقع عندما ينام أربعة أو خمسة اشخاص من كلا الجنسين ومختلف الاعمار في سرير واحد؟ – قذرون يفتقدون إلى الصحة ويمتلئون بالبراغيث وضعيفون بسبب التغذية السيئة عندما لا يكونون في أوج نشوتهم. (...) إنّ كل ما يعتقده مجتمعنا سيئاً يتمثل في اسرة (ريان). وكل ما كان مجتمعنا القديم يسعى إليه تجنبته اسرة (ريان) وتخلّت عنه فقد كان ذلك فوق طاقتهم. " ص١٩٠

لعبة الايهام.. كسر تراتبية السرد

حين يتولّى السرد مهمة القص عن حياة فرد تتسلط الاضاءة عليه طيلة المسار السردي دون أن يكون هناك تصدعاً او انعطافاً أو عودة إلى الوراء فإنّه يدخل إطار الحكاية التقليدية التي يحكى عنها كما حدثت في الواقع، غير" أن صياغة الاحداث وتنظيمها بطريقة جديدة، تختلف عن الطريقة التي وجدت فيها في الواقع، لا يضيف عناصر جمالية حسب، بل أنّ ما اتبعته ليسنغ في خطابها هذا، مستعينة بخبرة حرفية تمتد لاعوام طويلة وقراءات أدبية وتجارب حياتية لا يستهان بها فاتحيق في بنائها الروائي إلى لعبة الايهام حيث ابعدتنا كمتلقين عن معرفة الراوية بتفاصيل حياة (أميلي) الفتاة التي تبلغ الآن خمس عشرة سنة، وجعلتنا نبتعد عن شعور أنها كراوية كانت تعرف حياة الفتاة كطفلة قبلا، فاعتمدت لعبة الرؤية وابجدية الخيال " ذات صباح كنت اجلس معها ودلتني حركة بدرت منها عن شيء كان ينبغي ملاحظته. واصلتُ النظر إلى ذلك الوجه الشاب الذي كان مزيجا من وجه طفلة ووجه فتاة شابة وتمكنت من رؤية ذاتها المنعزلة البالغة اربعة اعوام.. اميلي. وفكرت ان كانت تتذكر شيئاً عن ماضيها او تجاربها التي كانت تسرع مثل شريط سينمائي يعرض وراء جدار غرفة الجلوس والتي اصبحت في تلك اللحظة مثل شاشة شفافة." ص٧٧

إنّ الراوية تتحدث عن جدار تخترقه نظراتها الرائية فتدخل عالما لم ترة مسبقاً، إنه الجدار الذي ينقلها على كف الاكتشاف أو على غيمة الرؤيا فترى ما ترى. جدار وهمي تخترقه لتجد نفسها أمام حياة أخرى. حياة لغرف وممرات وأثاث وأشخاص: طفلة ومرضة وأم ؛ ثم حياة لعائلة فيها الاب أيضاً وولد رضيع. والرواية / الرائية تلعب هنا لعبة الايهام. فهي تستخدم وصفاً لأيهامنا او اقناعنا بأنّ ما نراه ما هو إلا خيال أوْ رؤية وهو في الحقيقة لعبة قص تأتي على وهج الكلمات والاسطر راسمة صوراً واحداثاً لحياة تعاقبية وايام متتالية للفتاة (أميلي) التي أوكل إليها الحفاظ عليها يوم تركها ابوها عند الراوية التي لم نعرف اسمها طوال السرد واقتصرت ان تكون عين راصدة وفم سارد. تدخل الساردة على أميلي عبر جدار الخيال من باكورة طفولتها كرضيعة تتولى مهمة رعايتها ممرضة تشعر كما لو كانت ابنتها. وتطلعنا على الام الطويلة القامة التي تتأمل ابنتها بحنان وإلفة تعبر عن امومة دافئة. (هل كانت الممرضة هي الراوية؟.. هل الذي كانت تراه داخل البيت من غرف وأثاث تصفها وصفاً دقيقاً مسبغة عليها لواعجها واحاسيسها قد رأته فعلاً وعاشت مع تفاصيل وجوده؟..هل..؟ وهل...؟.. لم تطلعنا الرواية طيلة صفحاتها الثلثمائة والعشرين على ذلك). (هل ثمّة قصور في الترجمة بحيث ضاعت على المترجم شفرة ان الراوية هي في الاصل الممرضة؟.. هل كانت ثمة ايماءة لم ينتبه إليها المترجم هي التي تشكل مفتاح سر الايهام فأغفلها؟.. نشك في ذلك! فالترجمة جاءت في مهارة سبك وصياغة لغوية تنمي لذاذة القراءة لدى المتلقي وتدفعه إلى متابعة ومواصلة المطالعة.

وتتداخل حالة الايهام في الجزء الأخير من العمل الروائي عندما يغدو الواقع فانتازيًا أو أن ما يدور في الخيال هو الواقع، إذ أنّ الشخوص صارت تتكرر في الواقع والوهم. فالطفلان اللذان ابصرتهما الراوية يدخلان على أميلي في دوامة الوهم احدهما كان الذي شاهدته الراوية لحظة دخول البناية التي تضم شقتها ويحاول احدهما مهاجمتها بعصا كانت بيده هي نفسها العصا التي كان يمسكها لحظة ابصرته في الواقع يوم زارت أميلي في بيت جيرالد.

المدلولات كنتائج لدلالات

ان انتهاء الرواية وخاتمتها يشيران إلى أن الطفولة تحتاج إلى ما يبرمجها ويفعّلها باتجاه الحياة الايجابية المنتجة ؛ وأنّ اللامبالاة والاهمال اللذين تجابهها الطفولة هذه إنما ينحيان بها منحى سلبياً فيخلقان حياةً متعثرة، مثلما تشير إلى أن الاطفال بحاجة إلى مأمَن يخلق لديهم نزوع السير صوبَ النهوض والإرتفاع الصحيح حيث النمو والتنشئة الحقّة بنظم تربوية أخلاقية ومسارات اجتماعية صحية. مسارات تضع لبنات خلق جيل مُنتج يصنع الحياة ويهبها الهناء ؛ لا أن يغتالَ الأعوام منها فيرديها في هوّة الظلام.

إنّ دوريس ليسنغ في (مذكرات مَن نجا) تُقدّم مشهداً سرديًا لحياة تفتقر إلى النظام. ما زالت هي تشعر أن الكثير من الشعوب تعيشها بدليل أنها لم تحدد بقعة مُشار لها، مومئة إلى أن الطفولة لمّا تزل تُنتهَك والانظمة السياسية بعيدة عن هذا الاهتمام، وإذا حضرت فإن حضورها لاستعراض القوة وبيان وجود الهيمنة. أمّا الخدمات والبرامج التثقيفية والتطويرية عبر خطط اقتصادية مرحلية ونظرة بعيدة لمستقبل يقطف الشمس فليس في حسبانها ولا ضمن رؤاها للقادم من الايام.

(×) *مذكرات مَن نجا – دوريس ليسنغ – ترجمة محمد درويش – وزارة الثقافة والاعلام العراقية – سلسلة المأمون – ط١ ١٩٩٠*

(××) *البناء الفني في الرواية العراقية – د. شجاع مسلم العاني – دائرة الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٩٤ – ص٩*

دوريس ليسنغ..
الكتابة دفاعاً عن النفس

ليث فائز الايوبي

درج كتاب السيرة الغربيون على تناول حياة الأدباء المشهورين من خلال الحوارات الصحفية التي يجرونها معهم على أمل الحصول على بعض الاعترافات والمعلومات والوثائق أو حتى مراجعة المفكرات الشخصية قبل الشروع بتأليف سيرهم الذاتية. وهذا ما يعزّز الجانب التوثيقي ويضفي على فصولها نوعا من الموضوعية. تلك الكتب التي غالبا ما تأتي على شكل ريبورتاجات صحفية او حوارات متسلسلة تفتقد أحيانا (أخلاقية المهنة) على حد وصف الكاتبة البريطانية دوريس ليسنغ وهي تصف معاناتها..

فأولئك الكتاب الذين دأبوا على هذا النوع من الفن، اكتسبوا إلى حد ما قدرا واسعا من الصنعة الصحفية المتسمة بالمسحة الأدبية الصرف أكثر من اكتسابهم للمنهج الأدبي الرصين. محاولين الميل إلى احدي كفتي الميزان. ألا وهي إضفاء الإثارة الصحفية على أعمالهم أكثر من نقل الحقيقة!

لقد عانت دوريس ليسنغ (التي تحيط نفسها بهالة من الخصوصية والغموض) كثيرا من حالات التلفيق والتطفل الذي مورس معها من قبل كتاب سيرتها، الذين حاولوا الحصول منها على بعض الاعترافات والرسائل الشخصية. بل ان بعضهم لم يكلف نفسه حتى مجرد اللقاء بها مكتفيا بفبركة أحاديثها وإيراد عدد من مقالاتها القصيرة التي وصفت فيها جانبا من حياتها مثلما فعلت الصحفية كارول كلين التي سارعت إلى تأليف كتاب يمثل سيرة دوريس ليسنغ الذاتية مستندة فيها الي بعض الحوارات والمقالات الاستذكارية وتدعيمها بحوارات جانبية مع صحفيين سبق لهم أن التقوا ليسنغ وحوارات مع مساعديها الشخصيين السابقين، ومع أناس من عالمي السياسة والأدب عرفتهم في ما مضي، وحوار مع عاشق قديم مهذار، غير أن الكثير من هؤلاء لم يفضوا بما في صدورهم إلا بعد إصرارهم على أن لا تذكر كلين أسماءهم. ربما لأنهم أرادوا تجنب إثارة غضب ليسنغ على حد وصف الكاتبة البريطانية لاوري. نفسها) كما قالت يوما دون ان يغيب عن بالها انه ما لا يقل عن خمسة من كتاب السيرة الأمريكان كانوا في تلك السنوات يكتبون سيرة حياتها من وجهة نظرهم هم. مضيفة (غير أني لا استبعد وجود كاتب آخر يلفق الآن كتابا عني مستندا الي معلومات يزعم أنها تمثل سيرة حياتي. يستمدها من رواياتي ومن مقالتين قصيرتين كتبتهما يوما عن والدي ووالدتي).

ولدت ليسنغ عام ١٩١٩ وعانت منذ نشأتها وطفولتها المبكرة فقدان الأمن وغياب الحس الاموي والحرمان العاطفي الذي القى بظلاله على مجمل كتاباتها وشخصياتها الروائية في ما بعد حيث نلحظ إصرارها العجيب على تناول تلك المضامين الإنسانية في عدد من أعمالها بصورة واقعية وصادقة لا يرقى اليها الشك. ففي روايتها (الحب مرة أخرى) تكتشف كيف إن الأم الشابة عديمة الشفقة تعامل ابنتها الصغيرة بنبذ وقسوة. فنجد في الطفلة صورة عن نفسها!.

حتى إن قارئ رواياتها يخالجه الشك في أن ليسنغ ربما تقوم بسرد سيرتها الذاتية. ولكن بصورة غير مباشرة. وبرغم أن ما هو متعارف عليه عنها. هو إهمالها التام وعدم اكتراثها لأسلوب ولغوية الرواية إلا انه يحسب لها لا عليها ذكاؤها في رسم وتصوير الشخصيات التي يشعر القارئ بأنه يعرفها أكثر من معرفته لأصدقائه فضلا على أفكارها المملوءة بالعواطف ورؤاها الجياشة وهذا لا يعني أبدا أنها تهتم بالمضمون على حساب الشكل.

حظيت أعمالها باهتمام نقدي كبير كونها تعد كاتبة كولونيالية، احتلت موقعا مهما في قلب المشهد الأدبي العالمي وتوزعت أعمالها على ثلاثة أجزاء ضمن مشروع سيرتها الذاتية ومجموعة شعرية واحدة وخمس وعشرين رواية وعشر مجموعات قصصية فضلا على عشرات الكتب النقدية والمسرحية. اتسمت شخصيتها بالتمرد حين انخرطت في صفوف الحزب الشيوعي في بداية مسيرتها الأدبية. وتخلت عن طفليها بعد طلاقها من زوجها الأول وتزوجت من غوتفريد ليسنغ الذي سرعان ما هربت منه أيضا مع ولدها منه إلى إنكلترا حاملة معها مخطوطة روايتها الاولى (غناء العشب) التي حققت نجاحا كبيرا عند صدورها عام ١٩٥٠.

أصدرت جزْأين من سيرتها الذاتية: (بعيدا عن السطح عام ١٩٩٤ والسير في الظل)عام ١٩٩٧ وكانت تعتزم إصدار الجزء الثالث من سيرتها. ولكنها عدلت عنه ظناً منها أن ذلك سيسبب أذى لكثير من الناس. لذا فقد اختارت أن تكتب بدلا عنه روايتها (الأحلام العذبة) وغالبا ما تصب جام غضبها وسهام نقدها في وجه الأكاديميين واصفة إياهم بالبلادة والافتقار إلى الخيال الذي جرى تبنيه ضد أعمالها كما تقول من قبل أولئك الذين (تغذوا لزمن طويل على تقوى الأكاديميات المتكلفة) على حد وصفها مدعية أنها صادقت التهميش على أيدي مافيا الجامعات برغم ان بعض الجامعات ادخلت رواياتها ضمن المنهج الدراسي في الولايات المتحدة.

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

دوريس ليسنغ

تكتب عن عشيق الليدي تشاترلي

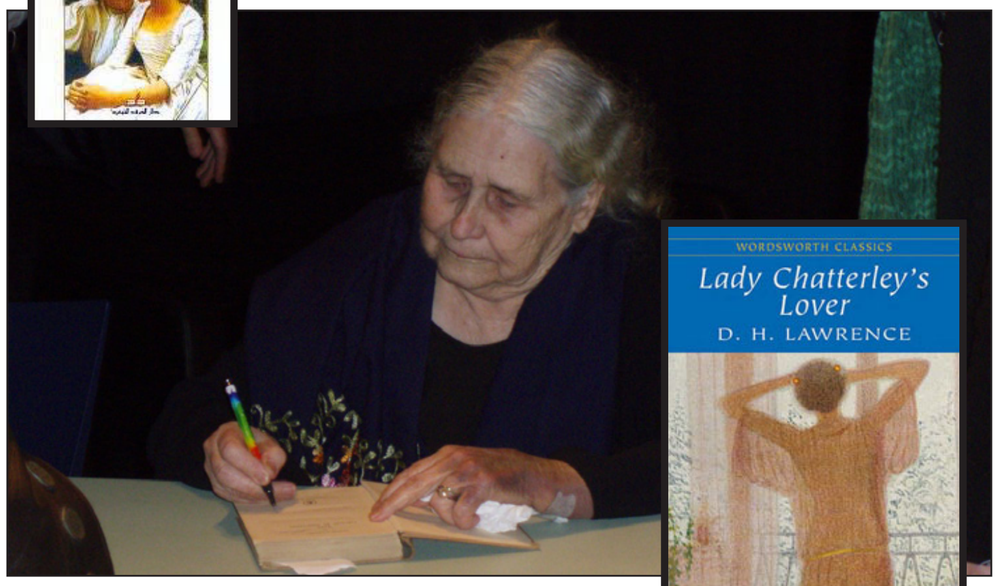

يعد الخيال الشعبي عشيق الليدي تشاترلي رواية عن الجنس الصاخب أما دوريس ليسنغ فإنها تعدها من أهم روايات لورنس كتبها في ظلال الحرب بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بسبب التدرن الرئوي وتعدها ليسنغ من أهم الروايات المناهضة للحرب التي كتبت حتى الآن. دوريس ليسنغ تكتب عن رواية عشيق الليدي تشاترلي، لديفيد هربرت لورنس.

عن الغارديان
ترجمة/ عدنان توفيق

هناك روايات عدة لا يمكن أن نعزو نجاحها إلى ارتباطها بأزمنتها الخاصة وأخرى وبسبب طبيعتها الجدلية لا يمكن فهما إلا من خلال سياقها الخاص وعشيق الليدي تشاترلي هي واحدة من هذا النوع، إن قراءة هذه الرواية من دون خلفية وخصوصا النسخة الثالثة الأكثر جرأة سيجعل القارئ يتساءل عن مبرر هذه اللهجة التبشيرية الملحة urgent preaching وخصوصا القارئ المعاصر عندما سيكون من الصعوبة تذكر في أي مجتمع معسول اللسان – mealy mouthed كان لورنس يكتب، مجتمع قمعي تسوده الحشمة و التزمت.

النسخ الثلاث من الرواية كتبت خلال أربعة أعوام ولكن ليس بطريق إعادة التنقيح بقدر ما كانت نسخا جديدة ويمكننا الاعتراض كما يفعل الكثيرون بأن النسخة الثالثة لم تكن الأفضل ولكن لورنس نفسه كان يفضلها على البقية فهي الأكثر استغراقا في العاطفة والإصرار وربما كانت كثافة الرواية هي التي منحت لورنس شهرته ككاتب مهووس بالجنس إذن علينا أن نعرف أولا ظروف كتابتها، كان لورنس مشرفا على الموت بسبب التدرن الرئوي وكان يرفض الاعتراف بمرضه رغم إنه كان يدرك بجانب من عقله هذه الحقيقة، قبل رواية عشيق الليدي تشاترلي كان لورنس قد اكتسب شهرة رائد الحملة الصليبية الجنسية وقد منعت رواياته وصودرت بسبب ما أثارت من فضائح وكانت المراجعات النقدية لرواياته مليئة بالأسى بدلا من الغضب، كان النقاد يرثون هذه الموهبة الفذة الغارقة في البذاءة وكانت رواية نساء عاشقات قد أثارت الصدمة بين القراء والنقاد وكان لورنس وفي كل الأوقات يعيش في وضع مليء بالمشاكل فهو إما يدافع عن نفسه أو يهاجم الآخرين،كان مزاجه ينطلق كشخص يعاني من التدرن الرئوي، حساس للغاية وسهل الإثارة ومنزعج فالمصابون بهذا المرض يعرفون بأن حياتهم باتت قصيرة وهم يتذكرون الموت في كل حشرجة وفي كل سعال وكان لورنس وفي سنواته الأخيرة تعرض للطرد من عدة فنادق بسبب السعال فأصبح حريصا في اختيار محل إقامته، عندما كان لورنس شابا كان فخورا بجسده رغم صدره الضعيف وفي رواياته المبكرة وخصوصا الطاووس الأبيض white peacock نرى شابا في الريف مع أصدقائه ينتبه لكل طائر وحشرة ونبتة ويمكن أن يقول مع جون كلير (أحب الأشياء المتوحشة حد الجنون) وهذا الريفي الفخور بنفسه تحول إلى إنسان بائس يرثي نفسه وهذه العواطف الجياشة والمحتدمة كانت وراء الرجل المريض الذي أعاد كتابة روايته الشهيرة ثلاث مرات، كانت زوجته فريدا على علاقة مع إيطالي وكان لورنس على علم بهذه العلاقة ولم تكن هي باللباقة الكافية لتخفي أمرا كهذا كما لم تكن تراعي مشاعره في أي شيء وكانت تخبر أصدقائها بأن لورنس كان يعاني من العجز الجنسي منذ عام ١٩٢٦ والتدرن الرئوي ينجم عنه أمرين متناقضين الأول تصعيد الرغبة الجنسية والتخيلات المرتبطة بها والأخر العجز عن ممارسة الجنس، والعلاقة الجنسية بين لورنس وزوجته كانت موضع منازعات علنية ولم تكن هناك أسرار، فجميع الأصدقاء والمعجبين والزوار كان يتم إخبارهم بكل مراحل قصة الحب بينهما وتفاصيل ممارساتهما الجنسية، وكان لورنس يكتب عن كافة التفاصيل سواء عن طريق الشعر أو النثر، وكانت فريدا تشتكي لدى أخواتها وأصدقائها وعشاقها السابقين عن عجزه الجنسي وفشله في إرضائها جنسيا وكانت فريدا امرأة جذابة لديها عدد من العشاق وكانت جاذبيتها شديدة إلى درجة أنها أوقعت بلورنس ومارست معه الجنس بعد عدة دقائق من لقائهما الأول، وإذا كانت الممارسة الجنسية في رواية الليدي تشاترلي مزيجا من التضليل والروعة فإن النقاشات والمشاحنات والإشاعات وكما يتبين من المعلومات الواردة من المزرعة في تاوس فإنها كانت منفرة.

إن المنغصات السائدة في حياتهما العاطفية يبدو إنها لم تكن تشكل أمرا ذات أهمية بالنسبة لهما لأنهما كانا يتشاركان ان في فيما هو سامي وجليل وكان لورنس قد أخبر فريدا بأنه لم يكن يساوي شيئا من دونها وعندما كان المتعاطفون مع فريدا بعد وفاة لورنس يخبرونها عن تعاسة زواجها كانت تخبرهم بأنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة مدى روعة لورنس وإنهما معا استمتعا بتجربة كانت بعيدة المنال عن أغلب الناس، ولم تكن العلاقة الزوجية الخاصة بالمشاكل وحدها ما يصدم أصدقائها بل أيضا ما كانت ترد من معلومات عن قسوة لورنس مع الحيوانات وهو يعاقبها لأتفه الأسباب ومع ذلك فقد كتب قصائد وقصص رائعة عنها.يقول لورنس في بداية القصة التي من المفترض أنها تدور عن الجنس (نحن نعيش وسط الحطام) ومعلنا عن ما أعتبره الموضوع الأساسي للرواية التي غالبا ما تم التغاضي عنه هو الغوص في أهوال الحرب العالمية الأولى، الأجساد المشوهة، المذابح غير المجدية في الخنادق والفقر والبؤس والفراغ التي تلت الحرب وكان لورنس يعتقد بأنه يمكن إنقاذ إنكلترا من خلال الممارسة الجنسية الحميمية، واليوم وبعد مرور ستين عاما على الحرب الثانية نرى ميلورز الذي كان جنديا في الهند في الحرب الأولى وكونستانس تشاترلي مع زوجها الكسيح متعلقان ببعضهما في انتظار الحرب القادمة التي ستكتسح العالم،وليس الموضوع فقط ما نشاهد من ظلال الحرب وهي تسري داخل الرواية،وهي تهدد أبطالها أو أن قصة الحب تفقد حدتها لهذا السبب بل وكما أعتقد بأنه مناهضة الحرب الذي لم ألحظه لدى القراءة الأولى وعظمة موضوع وقوف شخصين ضد العالم، إن إعادة قراءة الرواية تجعل المشاهد الحافلة بالجنس تفقد قوتها خصوصا بعد الثورة الجنسية التي اكتسحت العالم الغربي أما في الأجزاء الأخرى من العالم حيث يتم رجم النساء حتى الموت أو يشنق علنا بسبب تهمة الزنا فأن هذه الرواية تعتبر بيانا عن الحرية الجنسية، إن بعض المشاهد الغرامية تصل إلى حد السخافة ولكن علينا بالتأكيد أن نحي لورنس لشجاعته إن العشاق غالبا ما يتصرفون بغرابة ولا يرغبون أن يطلع أحد على محادثاتهم الغرامية ولكن لورنس يجعل عشاقه يركضون تحت المطر فشجاعته على وجه الدقة هي التي تقربه أحيانا من حافة الحكاية الهزلية،فالروائي الأكثر دهاء والأقل موهبة كان سيزيل هذه الفقرات الموحية بالسخرية ولكن بالنسبة ل لورنس فإن الروعة تتجاور مع الغرابة في أغلب أعماله.

دوريس ليسنغ: يؤسفني أن فرجينيا وولف لم تكن في قائمة الفائزات بالجائزة

ليزا ألديرك و سام جونز
ترجمة: زجاج الجبيلي

" كنت عائدة من المستشفى مع أبني بيتر الذي كان مريضاً. نزلت من سيارة التاكسي وكانت هناك كاميرات وحشد كامل من المصورين. وبما أن هذا الشارع مناسب لهذه الأمور، اعتقدت أنهم كانوا يصورون مسلسلاً تلفزيونياً أو مشهداً من "مورس" أو شيئاً آخر. لكن كل ذلك كان من أجلي. فأول ما سمعت بخبر فوزي بجائزة نوبل كان من الصحفيين".

"إنها الجائزة الأشد جذباً، ومن الطبيعي أنها تحوز على الكثير من المهابة التي لا تمتلكها الجوائز الأخرى. إنها بمثابة زينة الكيكة. في وقت من الأوقات، في السبعينيات لم يكونوا يرغبون بي، لكن يبدو أنهم غيروا رأيهم الآن.

اللجان هكذا. بطبيعة الحال لم أتوقع الفوز بها. لقد كنت في القوائم التمهيدية طيلة ٤٠ سنة. ومن الجيد أن أكون المرأة الحادية عشرة في القائمة. وأنا أسفة لأن فرجينيا وولف لم تكن الأولى أو الرابعة أو الخامسة. لكن من غير المفيد التكلم عن الكتابة بمصطلحات الذكر والأنثى. هناك الكثير من الكتاب البريطانيين فازوا بها وهذا أمر جيد. لدينا عدد كبير من الكتاب الجيدين. كنت أتحدث بلا انقطاع اليوم كله. تكلمت مع ناشري ووكيلي وأصدقائي القدامى الذين هاتفوني، وكان شيئاً رائعاً. هناك العديد من الناس الذين أرادوا أن أحصل على الجائزة منذ وقت طويل. لهذا من اللطيف جداً أن أفوز بها.. لكني منهكة. ولكي احتفل عليّ أن أذهب واشتري الشمبانيا. أنا ذاهبة لأنام".

بإعلانها الجائزة في يوم الخميس ١١ تشرين الأول فإن أكاديمية نوبل أطرت إطراء بالغاً رائعة ليسنغ "المفكرة الذهبية" النسوية ما بعد الحداثوية، وسمتها " عملاً رائداً" ينتمي إلى حفنة من الكتب التي تعرض رؤية القرن العشرين عن العلاقة بين الذكر والأنثى". وإطراء الأكاديمية لليسنغ وطول الفترة التي تطلبتها للحصول على الجائزة كان له صداه لدى كاتبات أخريات.

قالت الروائية الأمريكية كيرول جويس أوتس بأن منحها الجائزة قد تأخر طويلاً. "من الأفضل للجنة أن تعترف بإنجاز ليسنغ الفريد على الرغم من أنه جاء متأخراً بعد عقدين أو ربما ثلاثة عقود".

وقالت الروائية البريطانية إي أس بايات: " أنا سعيدة بفوزها- وكان يجب أن تفوز. حين كنت في السويد قال أحدهم إنها لن تفوز أبداً. لهذا تضاعفت سعادتي بفوزها".

وأضافت أن "ليسنغ" إحدى "رسل الأدب المعدودات اللاتي لديهن رغبة غريبة في الكتابة عن المسائل التي ستصبح مشكلة قبل أن تظهر في الأفق إذ أن العديد من الكاتبات غير قادرات على عمل ذلك".

وقدمت الروائية الكندية مارغريت أتوود التهاني ليلة الفوز واصفة قرار الحكام بالرائع.

وقالت كارمين كاليل مديرة دار نشر " فيراغو" المتخصصة بالقضايا النسوية: "لقد مرّ وقت طويل حتى اعترفت الأكاديمية بليسنغ. وأضافت بأنها "كاتبة كبيرة وامرأة بارزة- الصفتان اللتان لن تجتمعا سوية دائماً" ورفضت كاليل أيضا الإيحاء بأن ليسنغ المؤرخة الأولى والأخيرة للانقسام الجنوسي إذ تقول: " إنها أسهمت في الأدب العالمي. لا أعرف بأن النسوية تتدخل فيه".

على مدى أكثر من نصف قرن استعملت ليسنغ الرواية لتعبر من خلالها عن الانقسامات العرقية والجنسية والاجتماعية. ولدت في عام ١٩١٩ لوالدين بريطانيين في ما يسمى الآن "باختران" في إيران. وبعد ست سنوات انتقلت العائلة إلى حقل في روديسيا الجنوبية – التي تعرف الآن بزيمبابوي- وهو الحدث الذي أثر كثيراً في مؤلفاتها. وعلى الرغم من أنها انتقلت إلى إنكلترا في عام ١٩٤٩ إلا أن رواياتها الأولى " العشب يغني" التي نشرتها بعد سنة تتحرى العلاقة بين زوجة المزارع الروديسي البيضاء وخادمها الأسود. وشكلت أفريقيا كذلك الخلفية لرواياتها الشبيهة بالسيرة الذاتية " أطفال العنف" وهي سلسلة من الكتب تمتد على مدى السنوات من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٩.

إن موقفها الصريح من التمييز العنصري في جنوب أفريقيا جعلتها شخصية غير مرغوب بها هناك فأبعدت من البلد من عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٩٥، ولأنها غير خائفة من تبني السياسة، فقد انتمت إلى الحزب الشيوعي البريطاني في الخمسينيات وقادت الحملات ضد التسلح النووي.

إن تقدمها المفاجئ في الكتابة وكونها الرائدة في النسوية ظهر في عام ١٩٦٢ بنشر كتاب " المفكرة الذهبية" وهذه الرواية المركبة المفككة تحكي قصة آنا وولف وهي روائية تعاني من حصار كاتب يحاول أن يفهم أفكارها وأحاسيسها من خلال خمس مفكرات تحتشد بالتأملات عن أفريقيا والسياسة والجنس والتحليل اليونغي للأحلام.

وتكشف رواياتها الأخيرة عما وصفته أكاديمية نوبل بانهماكها " برؤية الكارثة الكونية التي تجبر الإنسانية على الرجوع إلى حياة أكثر بدائية".

تبدو ليسنغ نفسها أقل انبهاراً بعملها وبواعثه. وحين سئلت في مقابلة في جريدة "الغارديان" بداية هذه السنة عن الباعث في كتابتها القصة ردت بجواب مميز: " بالنسبة لشخص مثلي إنه أمر لا بد من أن أعمله. عليّ أن أنجزه وإلا أصبت بالجنون. اعتقد أنه شيء عصابي جداً أقوله عن نفسي. لا أستطيع التوقف عن الكتابة. وهذا يعني أن شيئاً ما خطأ يتعلق بي".

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

جائـزة نـوبـل
لدوريس ليسنغ

ابتسام عبد الله

دوريس ليسنغ كاتبة معاصرة تناولت في اعمالها قضايا متعددة منها العنصرية، النوع البشري، العدالة الاجتماعية، وتعتبر واحدة من اهم الاصوات الادبية لجيلها لقد سبقها كتاب انكليز الى هذه الجائزة ومنهم: هارولد بينتر قبل عامين ويليام تشرتشل، ١٩٥٣ ويليام غولدينغ ١٩٨٣.

في حياة دوريس ليسنغ ثلاث مراحل بارزة الاولى في الخمسينيات متأثرة بتجربتها في روديسيا، شيوعية الانتماء، وكانت رواياتها "العشب يغني" قد حققت لها النجاح، وبدأت في تناول موضوعات اجتماعية كما في عملها "أطفال العنف" الذي صدر في اجزاء (السياسة الثورية كان موضوعا عادت اليه ليسنغ عام ١٩٨٥ في عملها "الارهابي الجيد" وشخصية مارثا كويست المرأة التي تعرف نفسها بالثائرة.

وتعتبر ليسنغ اكبر الكتاب الذين نالوا نوبل وتقول عن التقدم في السن: "السر الكبير هو انك لا تتغير حتما في السبعينيات او الثمانينيات من العمر الجسد يتغير ولكنك لا تتغير على الاطلاق.

وهذه عبارة تعتبر صادقة من امرأة عاشت الاحداث المهمة في القرن العشرين، الحروب: والقنوط واليأس في الحرب العالمية الثانية، الحرب الباردة واخيراً الحرب المضادة والعولمة.

وتقول "بدأت الكتابة عن الحاجز اللوني ثم اصبحت شيوعية ثم مناصرة لقضية المرأة ثم متصوفة اخيراً.

وتقول: "احب اعمال كاتبين انكليزيين: نيبول وهارولد بينتر اصبحت رمزاً في عالم روايات نهاية الخمسينيات

المرحلة الثانية كانت في اعوام الستينيات، عندما بدأت في استكشاف مناطق العقل وفي هذه المرحلة طبعت "المذكرة الذهبية" الذي يعتبر من افضل اعمالها، وتتناول في الرواية العالم الداخلي للبطلة أنا وولف، بطلة اخرى لها تريد ان تعيش حرة وكرست هذه الرواية دوريس ليسنغ واحدة من افضل عمالقة الادب في العالم.

في السبعينيات بعد طبع تجربة اخرى، يختصر النزول الى الجحيم، انغمرت ليسنغ في التجربة الصوفية، وروايات الخيال العلمي.

مع ليسنغ تندمج الضحكة والحكمة معاً ويمكن ان نصفها بعبارة تعتبر ليسنغ ابنة الامبراطورية البريطانية. ولدت في ايران عام ١٩١٩، ونشأت بعدئذ في روديسيا المستعمرة البريطانية (زيمبابوي).

لم تتلق تعليماً نظامياً تركت المدرسة وهي في سن الرابعة عشرة.

وتعزو قراءاتها واهتماماتها الادبية الى والدتها التي كانت تواظب على شراء الكتب الحديثة.

تزوجت وهي في الـ١٩ من عمرها، طلقت بعد فترة قصيرة، تزوجت ثانية من الماني يعيش في روديسيا ثم افترقت عام ١٩٤٩ وغادرت الى انكلترا مع ابنها بيتر مخطوطة العمل الاول لها، ومن ذلك الوقت وهي تعيش فيها.

دوريس ليسنغ تقترب اليوم من عامها الـ٨٨، وتقول: "المفكرة الذهبية"، هي الرواية التي جعلت من دوريس ليسنغ أيقونة نسائية في عام ١٩٦٢، ولكن اعمالها الكثيرة التي تلاحقت فيما بعد أربك انصارها، وروايتها الاخيرة لا تعتبر استثناء من ذلك الامر.

عن عملها الاخير تحدثت ليسنغ مع صحيفة الغارديان لتقول: "لا اعتقد ان روايتي الاخيرة "الشق" تتشابه مع اعمالي التي سبقتها (عدد اعمالها ٥٠ عملاً)، لقد استوحيتها من تقرير علمي يؤكد ان المرأة كانت اساس النوع البشري وان الرجل جاء بعدها بفترة طويلة.

أما عنوان الرواية "الشق"، فقد اختير من عبارة قالتها "البزابيث الاولى" لو كنت مولودة متوجة بدلاً من مشقوقة من شيء آخر، لما عاملتني، ايها الملك هكذا".

وفي رواياتها تتحدث دوريس ليسنغ عن ذلك النوع البشري الذي كان يعيش في الكون وحده، ثم اضطربت الحياة عندما وضعت احدى النسوة مخلوقاً غريباً اطلقت عليه اسم "الوحش" لاختلافه عن طبيعة تركيبهن وبولادة الوحش، بدأ نوع الرجال.

وبالنسبة الى كاتبة معروفة باسلوبها الواقعي الاجتماعي، لديها ميل عميق تجاه الفانتازيا، وتقول عنها المراغريت درابل "انها واحدة من قلة روائيين رفضوا ان يصدقوا ان العالم معقد جداً ويصعب فهمه "وليسنغ عندما اصدرت رواياتها "القطرس" بعد المفكرة الذهبية، تحولت الى شبه انجيل بالنسبة للحركة النسائية.

وهي تقول عن ذلك: "انا غير مهتمة بكوني ايقونة للحركة تلك، كوني إمرأة جعلني اكتب روايات تتناول قضيتها، خاصة في تلك المرحلة، وان لم اكتب عن تلك القضية فذلك يعني اني لا اعيشها او اني لا اكتب عن عشت تفاعلاتها. الذي لا افهمه عن الثورة النسائية، هو انتاجها لامور متطرفة كان ذلك أمراً فظيعاً.

اليوم وليسنغ في السابعة والثمانين، تبدو اقصر مما كانت ببضعة انجاد، ولكن قامتها ما تزال متماسكة وقوية وهي حتى اليوم، تميل الى حب القطط، الفت كتابين عنها). وعندما تستعيد ذكرياتها، تجد ان "الام" التي تشكل عبر الاعوام الخمسة الاولى، حياة وليدها، هي شخصية حامية وقاهرة ايضاً وعبر رواياتها، تحدثت دوريس ليسنغ عن علاقتها المضطربة بوالدتها، والتي أدت الى هروبها المتواصل في الحياة. والعديد من اعوام شبابها كان عبارة عن سلسلة من هروب، تغير فيها جلدها في كل مرة، تماما كما تفعل الافعى ذلك في الادغال. وموجز حياتها – الطفولة في افريقيا، (جنوب روديسيا) زيجتان الطفولة المتخيلة عنها، الرحلة الى لندن، الصعود لتصبح واحدة من اهم الشخصيات الادبية بعد الحرب العالمية الثانية ويرافق ذلك الموجز رحلتها الفكرية والروحية من الشيوعية الى دراسة القوى الروحية والى التصوف. وهذه الرحلة موثقة بالتفصيل، ليس في مذكراتها فحسب والتي تحمل عنوان "تحت جلدي (حتى ١٩٩٩)، و"السير في الظل" -٦٢- ١٩٩٩)، ولكن ايضاً في رواياتها، ونجد ذلك في "العشب يغني- ١٩٥٠" وهي تتناول التمييز العنصري في روديسيا، وفي "أطفال العنف" التي ظهرت في عدة اجزاء اما افضل رواياتها التي تروي سيرتها الذاتية فهي سلسلة بعنوان "كتب مارثا كويست" وحتى رواياتها الاخيرة ومنها على سبيل المثال، "الحب مرة اخرى- ١٩٩٦، و"جدات- ٢٠٠٣"، دون ان ننسى المفكرة الذهبية" التي صدرت عام ١٩٦٢.

ودوريس ليسنغ لم تكمل سرد سيرتها بعدئذ، بل اصدرت "الحلم الاجمل"- ٢٠٠١ وكانت كما تقول محاولة منها في اعادة السيطرة على الروح وتتناول فيه مرحلة الستينيات من العقد الماضي.

ولدت دوريس تيلر في ايران عام ١٩١٩ لابوين تلقيا صدمة وخوف الحرب العالمية الاولى. فقد والدها ساقه كما فقدت والدتها حبها للحياة. انتقل الزوجان بعدئذ الى روديسيا، عندما كانت دوريس في الخامسة من عمرها. وبالنسبة اليها، "لا يمكن الحصول على فرصة افضل في الدمج بين الاثنين في حياة روائي. كانت تحب التجوال بين الاشجار وتقديم المساعدة في العمل بالمزرعة. كانت قارئة نهمة والمنزل مليء بالكتب التي كانت والدتها توصي بجلبها من لندن. وعن حياتها هناك تقول: "كانت لدي حياتان مختلفتان. ما كنت اقرأ عنه وما كان من حولي. وان عاش المرء في جنوب روديسيا، يستطيع ان يقرأ ديكينز ويجري المقارنات وليس هناك اختلاف كبير بين اوليفر تويست وبين طفل اسود لا يحصل على الطعام الكافي له".

وكانت ليسنغ قد اعلنت من قبل الرغبة لتكون كاتبة، تولدت الرغبة لديها عندما كانت في مدرسة داخلية وهي في سن الحادية عشرة وفي الرابعة عشرة تركت المدرسة في اجازة مرضية ولم تعد اليها ثانية، بل بقيت في الدار، منصرفة الى القراءة ودخول معارك متكررة مع والدتها.

بعد اعوام عدة هربت ليسنغ كي تعمل في بدالة للهواتف منغمسة في ذات الوقت بقوة في حياة لاهية (علاقات، سهر، تدخين.. مشروبات) هروبها التالي كان لانقاذ نفسها من الادمان وتهيأ لها ذلك عبر تعرفها على العديد من الاوربيين الذين فروا من بلادهم هرباً من الاجتياح النازي واستقروا في سالزبوري كان بعض أولئك اللاجئين ذا ثقافة عالية، فتأثرت بهم وانصرفت الى تعليم نفسها.

غادرت ليسنغ الى انكلترا قبل بلوغها الثلاثين. ولم تكن لندن بعد الحرب المكان الملائم لامرأة مطلقة شابة ولكن نمو رصيدها في الوسط الادبي قدمها الى مجموعة من الكتاب البوهيميين في سوهو.

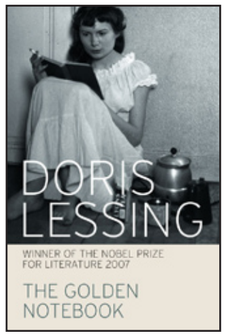

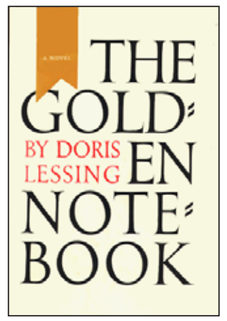

دوريس ليسنغ: عشت طويلا وكتبت كثيراً

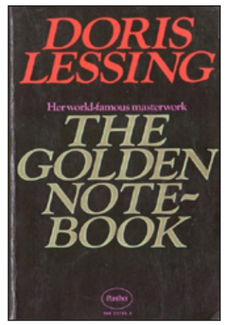

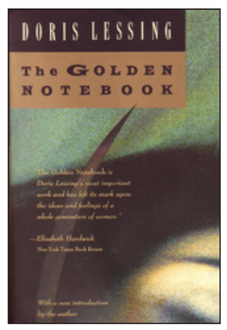

ترجمة: ابتسام عبد الله

آخر ما تقوله دوريس ليسنغ؟

■ ***كان تأثري كبيراً برواية "الصوفيون" لادريس شاه وتبين أثر ذلك في رواياتي بعد قراءتي لها عام ١٩٦٤ .***

■ ***أريد ان اكتب رواية اخرى وهي الاخيرة لقد اكتفيت: عشت طويلاً ، كتبت كثيراً وقرأت كثيراً، القيت محاضرات طويلاً واجريت لقاءات لا حد لها لم يبق شيء لم اقله***

ألفـرد وإميلـي.. ليسـنغ وعـودة والديهـا

ترجمة: ابتسام عبد الله

عن الصنداي تايمز

اسم الكتاب: ألفرد وإميلي

تأليف: دوريس ليسنغ

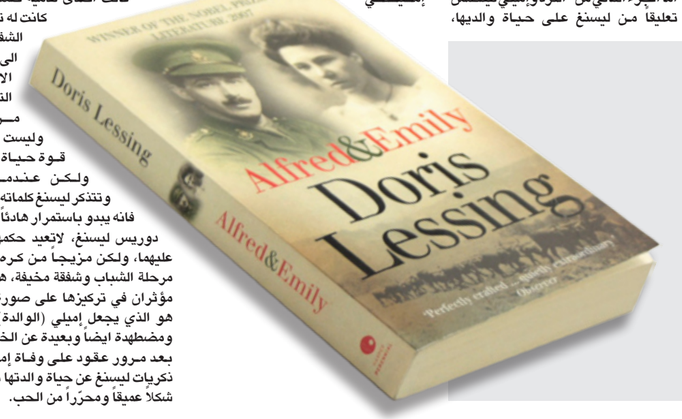

في هذا الجزء تجد متعتها الاكبر كأرملة غنية من دون اطفال، والتي تكتشف في نفسها موهبة لسرد القصص وعلى ذلك الأساس تنشىء سلسلة من مدارس تقدمية ناجحة.

اسلوب الجزء الاول يعتمد على الحوار، والسرد يروج ويجيء في البداية مابين الشخصية المتخيلة والحقيقية، ثم يميل تدريجياً الى الشخصية المتخيلة جاذباً القارىء اليها. ومع ان الجزء الثاني من الكتاب سيكون افضل وقعاً واقوى تأثيراً، فإن هذا الجزء يحمل بعض الملامح الساحرة ومنها التأكيد على ان قراءة التبني لها اهميتها وتكون أقوى من علاقة الدم.

ودوريس ليسنغ بهذا تفضّل لو ان والدتها لم تنجب، كما يحدث في الحياة المتخيلة لإميلي، قائلة: "ان الاطفال ينهون المرأة" عبارة تخفي وراءها معاناة كبيرة.

اما الجزء الثاني من "ألفرد وإميلي فيتضمن تعليقاً من ليسنغ على حياة والديها، ويتوهج سرداً في إعادتها من ليسنغ على، تذكر طفولتها في أفريقيا، اشعة الشمس تلتهب عبر الستائر البرتقالية في غرفة نومها، حيث تضع حجارة امام الباب لئلا ينغلق، كي ترى باستمرار الالوان الزرق والوردية والبنفسجية للجبال في الصباح.

وهنا تتحدث قليلاً عن حياة شقيقها، ولكن إميلي وألفرد هما الحاضران بشكل مركز في الجزءين.

وللدهشة، تبدو اميلي وباشكال متعددة الشخصية الاكثر حنانا، ربما لان ليسنغ تدرك ابعاد أحلامها المحطمة. وعلى النقيض من ذلك، يبدو ألفرد اكثر جاذبية وسحراً في السيرة الذاتية وفي الصور التي يتضمنها الكتاب- وهي احدى متع الكتاب، كانت احدى قدميه خشبية، ولكن كانت له تلك المخيلة الشفافة للتطلع الى النجوم الافريقية التي تتجدد من اجله، وليست لزوجته، قوة حياة المزرعة، ولكن عندما تستعيد وتتذكر ليسنغ كلماته الحقيقية، فانه يبدو باستمرار هادئا او عصبياً

دوريس ليسنغ، لاتعيد حكمها السابق عليهما، ولكن مزيجاً من كره قديم في مرحلة الشباب وشفقة مخيفة، هما عاملان مؤثران في تركيزها على صورة والدتها، هو الذي يجعل إميلي (الوالدة) منتصرة ومضطهدة ايضاً وبعيدة عن الخيال.

بعد مرور عقود على وفاة إميلي، فأن ذكريات ليسنغ عن حياة والدتها ينظر اليها شكلاً عميقاً ومحرّراً من الحب.

الهبــوط الـى الجحيــم

دراسة في الروايات الأخيرة لدوريس ليسـنغ

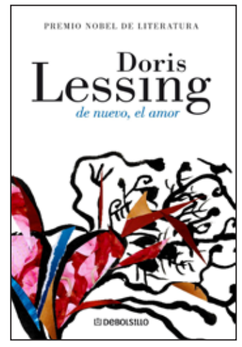

باتريك بارندر- ترجمة: د.هناء خليف غني

تعد دوريس ليسنغ من اهم وابرز روائيات الافكار في القرن العشرين، فقد تابع القراء في ارجاء العالم نتاجها الروائي في العقود الثلاثة الاخيرة بتحولاته المتعددة من الشيوعية التقليدية الى الفمنستية واللاعقلانية والصوفية واللاتحليلينفسية وآخرها الروحانية الكونية. وقد قادها احساسها الانتقائي بالاشكال القصصية من الواقعية الاجتماعية الى ما بعد الحداثوية والفنطازية الميثولوجية وما اسمته "قصص الفضاء". تعد (المدينة ذات الابواب الاربعة)(١٩٦٩) من بواكير الروايات التي تظهر فيها ليسنغ (حسب مقولة احد شخصياتها) بوصفها "لا تمثل شيئاً سوى- كاساندرا"، عرافة القدر الذي تتوقع ليسنغ اجتياحه الحضارة الغربية قبل نهاية القرن العشرين. بداهة، ان موقع ليسنغ كروائية نبؤية معروف حالياً ومحتفى به، على الرغم من تأليف العمل البراغماتي نسبياً (المفكرة الذهبية)(١٩٦٢) وما زال لأحد اهم رواياتها واشدها تأثيراً. حقيقة، ليس ثمة تقييم موضوعي لأعمالها بمقدوره التغاضي عن خصائص التساوق والجموح الكوني للرؤية التي تتكشف عنها رواياتها.

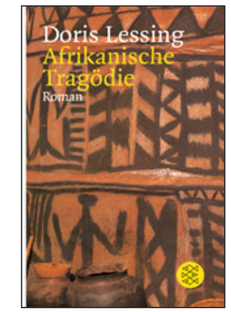

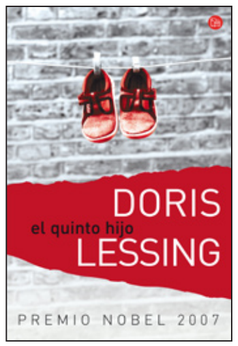

العقلانية واللاعقلانية هي متضادات جدلية لا محض متضادات منطقية في بنية العقل الغربي. وبقول مختلف، ومثلما اتاح العالم الفرصة لأنتهاكات المنطق، التي بلغت ذروتها في الشعور بالهلع من كارثة نووية مرتقبة، فأن التفكير المعاصر اللاعلمي يمثل نتاجاً جلياً لعصر التنوير المنشغل على نحو مثير بالنظريات التنظيمية للأنسان والتأريخ، والافتتان بالمشاهدة الدقيقة ومبرهنات الحواس. ان وجهة نظر دوريس ليسنغ ليست استثناء، فعلى الرغم من اختراعاتها الكوزمولوجية المذهلة، لم تأت (شيكاستا) (جونثان كيب، ١٩٧٩) وهي الاولى في سلسلة "روايات الفضاء" (كانبوس في ارغوس: حقائق ارشيفية) بجديد يخالف رؤية التأريخ المعاصر لليسنغ المبينة سلفاً في (المدينة ذات الابواب الاربعة) وخليفتها (جلسة للهبوط الى الجحيم)(١٩٧١) و(مذكرات ناج)(١٩٧٤). حقيقة، ان تكرار ظهور مارثا هس (مارثا كويست) وشخصيات اخرى في (المدينة) بأدوار ثانوية في (شيكاستا) لهو خير دليل على الوعي الذاتي الذي تحاول ليسنغ عبره التوصل الى بنية فلسفية وتأريخية ودينية شاملة. لذا، يبدو لزاماً، اعتبار اعمالها الاخيرة وقراءتها مجموعة واحدة قبل دراستها، على وفق تنويعاتها الشكلية، منفصلة. ان ليسنغ تفكر في نظامها الرؤيوي باسلوب يوازي في جديته جدية الشاعر والمسرحي الايرلندي، وليم بتلر ييتس- وربما فاقته في ذلك. ومع ذلك، فليس بمقدوري تحديد الاسلوب الذي سيعتمده النقد الادبي في التعامل مع هذا النظام عدا كونه اما تنبؤات خاطئة (او ربما خاطئة جزئياً) او أختلاق شعري. فأذا كانت ليسنغ، حقاً وصدقاً، العرافة التي تدعيها، فأن اعتماد أي اسلوب اخر خلا الايمان الاعمى او التملق سيكون، حتماً وقاحة. في ١٩٥٧، في ذروة طورها الليبرالي الشيوعي السابق، كتبت ليسنغ مقالة للتعليق على كتاب توم ماشلر (اعلان) حيث عزت مهمة الكاتب في المجتمع الى امتلاكه/امتلاكها "الصوت الشخصي الصغير." ما زال صوت ليسنغ شخصياً والى جانب موضوعات عداوتها وتعدد اوجه اهتماماتها فهو ما زال صغيراً خافتاً. ولكنه اضحى بأضطراد صوتاً كتابياً منتحباً في بريـة اختـارت بنفسها الاقامة بها. وهدفي الاول في هذا المقال هو تسليط الضوء على الطبيعة التنبؤية التي تجود بها رواياتها الاخيرة.

البشر، حسبما تعتقد ليسنغ، مخلوقات خاطئة. ان الامر لا يتعلق ببساطة في شيوع مظاهر الانحطاط والانهيار في تأريخ القرن العشرين، فسجل التأريخ البشري بأكمله، في حال فهمناه بصورة صحيحة هو سجل مدوي للانحطاط والانهيار من مستوى الثقافة والرقي الذي شهدته العصور المبكرة والبربرية ظاهرياً. لقد تركت الحضارة ما قبل التاريخية لبنائي الميغاليث× بصماتها الواضحة في "اللاوعي الجمعي" للجنس البشري، ولذا، ثمة دوما فرصة لأحياءها واستعادتها في "الفضاء الداخلي" للهلوسات والرؤى والاحلام. ثمة انواع ثلاثة من الصور، مستمدة كما يبدو من اللاوعي الجمعي، ما فتأت تتكرر في اعمال ليسنغ، وهي صورة البحر او صورة الرحلة الغرائبية الجريئة الى او عبر البحر، والفردوس الارضي، الارض التي يتعايش عليها الإنسان بسلام وتناغم مع الحيوانات واخيراً صورة المدينة المثالية التي تتخيلها بطلة ليسنغ الاوتوبايوغرافية، مارثا كويست، في لحظة تجل رؤيوية اثناء مراهقتها التي قضتها في مزرعة زامبية. "تأملت [كويست] الارض المحروثة عبر الطريق الى تلال دمفريس واعادة تصوير ذلك البلد البكر في خيالها. هناك ارتفعت غيمة بيضاء متلألأة فوق الشجيرات الخفيضة والاشجار الصغيرة. يالها من مدينة نبيلة، مربعة الشكل ومحاطة بصفوف من الاشجار على طول شوارعها المزدانة بالورود. كانت مزدانة بالنافورات المتدفقة واصوات الناي تصدح ومواطنوها يتنقلون سودهم وبيضهم وسمرهم بوقار ووسامة. وهذه المجموعات من الشيوخ تتوقف وتبتسم بحبور عند رؤية الاطفال- الاطفال الشماليون ذوي العيون الزرق والبشرة الناعمة يلعبون بمرح مع اطفال الجنوب ذوي البشرة البرونزية والعيون الغامقة. نعم انهم يبتسمون ويغمرهم الفرح ويرحبون بهولاء الاطفال متعددي الاباء الذين يركضون بين الورود والمجازات والمسالك، عبر الاعمدة البيضاء والاشجار الطويلة لهذه المدينة القديمة والرائعة(مارثا كويست)(١٩٥٢).

للوهلة الأولى، يبدو ذلك للقراء رؤية تنبؤية للقدس الجديدة متعددة الاعراق التي تمهد لتحول مارثا من قيم المستوطنين البيض الى قيم الاشتراكية والشيوعية. ولكن عند التفكير بتمعن، يمكننا تمييز المدينة "القديمة والمذهلة" بدقة اكبر. انها "المدينة الاولية الاصلية" التي ظهرت للمرة الأولى في الازمان ما قبل التأريخية؛ المدينة التي قال عنها لويس ممفورد انها تشكل "اساس الفكرة والمعتقد الطوباوي"١. هذه المدينة هي التعبير المرئي للجمال والنظام- انها تمثيل رمزي للنظام الكوني ولذا، فرؤية مارثا تمثل ذاكرة عرقية لمدينة الشمس المثالية التي الهمت العواصم الامبراطورية والاسطورية في افريقيا والشرق الادنى. في هذا السياق، اود التنويه ان قراءة كهذه، التي تبدو متكلفة ومفروضة اذا اهتممنا بمارثا كويست حصراً، تغدو حتمية متى ما قرأ المرء روايات مثل (جلسة الهبوط الى الجحيم) و(شيكاستا). في الرواية الاخيرة، اضافت ليسنغ الى ارضها ما قبل التأريخية "مدناً هندسية" متجانسة مع البيئات الطبيعية المحيطة والكونيات. و"الانسجام" هنا لا يوظف بمعناه المجازي، فكما في عوالم افلاطون، ثمة تناسق حرفي يجسد اكتمال الواقع الترانسندنتالي المتعالي.

اذن، الارض كانت مكتظة بمدن سماوية مشيدة تحيطها الحدائق والنافورات، وفي (شيكاستا)، تمتد التكوينات الصخرية الميغالبثية التي تؤلف الوسيلة الأمثل للتواصل مع الكونيات. (ان العبادات الدورويدية الكهنوتية التي خبرتها الصخور لا يعود تأريخها الى هذه الفترة المبكرة، بل الى محاولات لاحقة منحطة وبائسة لتقليد ومحاكاة حضارة ضائعة). اما المناطق الريفية المحيطة بالمدن فهي جنة للاحمة حيث لم تعد الحيوانات اكثر وحشية من الانسان نفسه. وحتى في حالتنا الخاطئة حالياً، فأن القدرة على حب الحيوانات والمرح معها- مثل عجل البحر في احلام كيت (الصيف قبل الظلام)(١٩٧٣)، وهوغو، الكلب/القط الغامض في (المذكرات) هي مظهر من مظاهر النعمة الالهية. وفقاً لذلك، ثمة امكانية لدخول الفردوس الارضي ثانية، على نحو خاطف، في لحظات النشوة الجنسية. في اتصالها الجنسي بجاك، العاشق الاشد خبرة في سلسلة ليسنغ الطويلة من العشاق في (اطفال العنف)، تمر مارثا بتجربة تصوفية فريدة حيث "شاهدت امام جفنيها صورة رجل وامرأة يمشون في مكان مرتفع تحت السماء الزرقاء يمسكون الاطفال بأيديهم والى جانبهم جميع انواع الحيوانات الوحشية، ولكنها لم تكن وحشية ابداً، الاسد والنمر والغزال والنمس والحمل جميعها بدت هادئة وديعة كحيوانات الجنة تمشي مع الرجل والمرأة والاطفال.عندئذ، ارادت مارثا الصراخ بالتباع، التباع لا هدف له ولم يكن ثمة ما يبرره (المدينة ذات الابواب الاربعة).

ازاء رؤية العصر الذهبي هذه، يمتد منظر الارض القفر الملوثة للحضارة الصناعية الحديثة التي صورتها ليسنغ بصبغ الفناها في نشرات الكوارث البيئية مثل (الربيع الصامت) لراشل كارسون. تتكشف رواية (الهبوط الى الجحيم) (التي كتبت، كما يبدو، تحت التأثير المباشر لرواية كارسون) عن رؤية مؤثرة للمدن المهجورة والانهار الغفنة والبحار الملوثة ببقع النفط والاحشاء الداخلية البشرية ممزوجة ببحث الطيور والاسماك المبتة. قطعاً، هذا هو الجحيم الذي يشير اليه العنوان: مكان ينبغي عزله عن بقية ارجاء العالم (مثل ثولكاندرا في رواية (خارج الكوكب الصامت) لسي اس. لويس).

ان الانهيار والضياع وادراك الجحيم على الارض تشكل سيرورة فردية وجماعية في آن. ففي المستوى الفردي، يؤلف التشظي والتصدع ثيمة ليسنغية شائعة جداً سبق وعالجتها ببراعة متناهية في رواياتها الاولى (العشب يغني)(١٩٥٠). تقول ملت في (المفكرة الذهبية)"ما ان يفتح المرء الباب حتى تحييه صرخة حادة ويائسة"، "هذا هو السر المظلم في زماننا". هذه الغرف التي "تفقد النساء عقولهن فيها" عادة ما تحوي قصاصات الجرائد وحقائق مدونة حول الحرب الباردة وسباق التسلح ومعالجة الامراض العقلية، انها ليست لواعج داخلية واقعية بقدر ما تمثل تجسيداً لرهاب الاحتجاز او الخوف من الاماكن المغلقة. ثمة مثال اخر دال هو دكتور كرول، عالم التحليل النفسي النازي السابق، الذي غطى جدران غرفته اثناء اقامته مريضاً في مستشفاه الخاص بصور غوياوية عن "المقابر والجماجم والجثث ومشاهد الحرب والدمار والبنايات المقصوفة والنساء والاسماك والمنازل المحترقة والاشخاص الذين يسقطون هلعاً من النوافذ المحترقة مثل النمل في اللهب (انها "عين الرب في الجنة")". ليس غريباً، في هذا السياق، تغلغل الشعور بالاضطهاد الذي تميل شخصيات ليسنغ الى الاصابة به بصفتهم ضحايا نموذجيين لكابوس القرن العشرين، في ثنايا الوعي السردي لليسنغ. هل ثمة سبب اخر، عدا هذا الشعور بالاضطهاد، يبرر توكيدها، الذي تعرضه بلا ادنى دليل يسنده في الواقع، في الاقل، في ثلاث من رواياتها الاخيرة، ان غالبية مشاريع تطوير اسلحة الفضاء تجري في السر وان العديد من الصحون الطائرة التي شوهدت من الارض ما هي الا سفن فضاء امريكية او روسية تقوم بمهمات عسكرية؟ الا ان نباهة ليسنغ وتيقظها للعواقب الوخيمة لسباق التسلح وما اطلق عليه أي بي ثومبسون "منطق التطرف" لم يحول، لسوء الحظ، دون استغراقها احياناً في الافتراض الوسواسي ان كل فكرة عامة بديهية هي فكرة خاطئة وكل بيان حكومي هو اكذوبة لخدمة المصالح الخاصة. ان الشعور بالاضطهاد لا يشيع في رؤى ليسنغ او رؤى ساردييها حسب، بل ان هذه الرؤية هي قدرية غالباً، فأيمان ليسنغ بعجز الانسان ولا اهميته لا يمثل تعبيراً عن شعور مؤقت بالقنوط والاحباط، بل انه، كما يبدو، احد المكونات الاساسية في نظام ديني وفلسفي شديد الرسوخ. ولا يتصل الامر بفشلنا بقدر تعلقه بسقوطنا؛ السقوط الذي حدث قبل بداية التأريخ المسجل. بداهة، بالكاد تصلح القدرية، بالطبع عدا الانواع الدنيوية العلمانية منها، ان تكون موضوعاً لقصة واقعية. ومع ذلك، فالشعور ان قدرها قد تحدد في مكان اخر يستولي على مارثا في اعقاب التجربة التصوفية التي مرت بها اثناء العلاقة الجنسية المبينة آنفاً. ان رؤيتها للعصر الذهبي يعقبها هاجس داخلي مفزع بشأن الحياة الفعلية التي ستحياها في لندن كأحد افراد عائلة كولدرج. وبينما هي متمددة في السرير في طور الاستفاقة من رؤيتها الثنائية، تحدثت الى شريكها بذات النبرة المتشككة الساخرة للبطلة الواقعية، فقالت: "هل فكرت يوماً- نحن نتخذ القرارات طوال الوقت: ولكن كيف؟

◀

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

انها تتخذ دوماً بالاحالة الى- نحن نتخذها استجابةً لشيء ما لا نعرف عنه شيئاً؟ "كلا! انا اتخذ القرارات! " "أه! انت سيد قدرك." ولكن احداً لم يسخر من جاك، فلا يمكن السخرية منه".

وهذه الاشارة العابرة، لانها لا تعدو كونها ذلك، الى فكرة ان حياتنا ليست ملكاً لنا تتطور على نحو مدهش في الروايات الاخيرة. في رواية (الهبوط)، يمر البروفسور جارلس واتكنز بتجربة شيزوفرينية تتكشف عن رؤية تصوفية للأرض والنبات عملها كما يشاهدها المسافر في السماوات: "شاهدت كيف تقع الحروب والمجاعات والزلازل والكوارث والفيضانات والاهوال وتحدث الاوبئة والطاعون واسراب الحشرات والجرذان والاشياء الطائرة ثم تنتهي وفق الضغوط الناجمة عن مجموعات الكواكب والشمس والقمر. ولكن، وعلى نحو مماثل لحياة الجنس البشري، فأن التحكم بحركة اسراب الجراد وانتشار الفيروسات تتم في مكان اخر. ان حياة الانسان، تلك القشرة الخارجية من المادة لم تكن يوماً مرئية حتى ينقض المرء بأندفاع، تماما كالطير الذي يندفع بقوة داخل المياه وخارجها للقيام بوجولة استطلاعية سريعة على قطيع السمك المتلألأ المتجمع حول الاطراف العريضة للموجة. هذه القوة والحجم والصحة المميزة لنبض الحياة قد احدثها ونظمها المشتري والزهرة وعطارد وزحل ونبتون واورانوس وبلوتو وتحركاتهم حول الشمس، مركز الضوء الذي يغذيهم جميعاً. ان الإنسان، ومضة الحياة تلك، يتقلص عدداً ويتضاعف سواء اكان محباً للسلام او قاتلاً- مكبلاً بالاغلال.

اذا كان علم الفلك يوفر جانباً واحداً من الضبط الخارجي للشؤون البشرية، فأن الجانب الاخر يتصل بالاهتمام الذي تبديه القوى الاستخباراتية خارج ارضية بهذا الكوكب. في نهاية (المدينة ذات الابواب الاربعة) استبشرت مارثا وبعض زملائها اللاجئين في احد الجزر الارضية خيراً بمستقبل البشرية في اعقاب مقابلتهم "اناس من الشمس"، ناج اخر من الكارثة القادمة، الساردة اللامسماة في (المذكرات)، تجرب رؤية متسلسلة لجوانب الحياة في بلد الاحلام في الجانب الاخر من حائط غرفة المعيشة. ان ظهور واختفاء الرؤية مستقل تماماً عن ارادتها الواعية، اذ قالت مبينة، "بعد كل هذا، لم تكن ابداً نفسي التي قررت وجوب احداث تغيير في حياتي اليومية المعتادة، فقد حان الوقت لأنتقال من حياة الى اخرى، لست انا التي اضعف جدار ضوء الشمس، ولست انا التي اعدت ساحة العرض خلفه. لم املك الخيار يوما. وكان الشعور بأني فعلت ما مطلوب مني وكما يجب القيام به قوياً جداً، وكذا الشعور بأني انجرف بعيداً، وتم اقتيادي وعرضي والامساك بي في تجويف راحة يد هائلة لدوريس ليسنغ- نشرت في مجلات قصص الخيال العلمي المتخصصة. سأعود لمناقشة اخفاق (شيكاستا) لاحقاً في هذه المقالة. ربما، ينبغي عند حديثنا عن صوفية ليسنغ تكرار ما قاله الناقد جي ك. جسترتون ذات مرة بحق روايات دكنز: "ان سرية ليسنغ في (المدينة ذات الابواب الاربعة والجلسة والمذكرات) ذا حساسية عالية، ولكن السر ذاته (شيكاستا) هو سر مرفوض. تعد كانيبوس، من بين اشياء اخر، تجسيداً مثالياً للأمبراطورية الارضية التي هاجمتها ليسنغ في (شيكاستا) بأزدراء يوازي في حدته ما قامت به في رواياتها السابقة. لقد تمكنت ليسنغ، بعد عشرين عاماً من نفيها وحرمانها من دخول وطنها الام، روديسيا الجنوبية، من خلق حضارة خارج ارضية لا تذكرنا بشيء بقدر تذكيرها ايانا بالاهداف الرسمية للأمبراطورية البريطانية "بمهمتها التحضرية." ان انشطة وفعاليات المبعوثين الكانوبيين على الارض تجعلهم، احياناً، يبدون من أفضل انواع الحرس باللباس المدني.

ان الهدف الظاهري من كتابة (كانيبوس في اراغوس: حقائق ارشيفية)، التي صدر منها مجلدين في وقت كتابة المقالة، هو الكشف عن تاريخ التدخلات الكانوبية السيرانية في الارض ومناطقها المجاورة. لقد تقرر توطين جنس من العمالقة من كوكب اخر في الارض، يتولون مسؤولية بناء المدن بمعاداتهم الصخرية فضلاً عن تطوير حضارة ارضية الى حد يمكن به اقامة رابطة او اتصال ذهني مع بقية اجزاء الامبراطورية. ان اسطورة ليسنغ عن الاصول البشرية- وهي بديل سخي عن اسطورة الشيوعية البدائية- التي اعتنقتها في بداية حياتها- تستند بشدة الى النظريات الاركيولوجية الحديثة التي تبين الانجازات الفلكية والرياضية والمعمارية المبهرة لاسلافنا من العصر الحجري (تكلف احد الشخصيات في (الهبوط)، وهو عالم اثار محترف، بمهمة واحدة فقط هي شرح افكار ليسنغ). وعلى نحو مماثل لأرخ فون دانكن وغيره من المنجمين الذين احتلت كتبهم قائمة افضل المبيعات، تؤكد ليسنغ التناقض الواضح بين المباني المشيدة بالصخور الميغالثية والفرضيات الاساسية للأنسانية الغربية. فعوضاً عن تمثيلها منجزاً تكنولوجياً يفخر به الانسان، شيدت هذه المباني من قبل الغرباء الرسخة صورتهم في الذاكرة الشعبية بوصفهم عمالقة او آلهة اشد تطوراً منا. ومن هنا تبرز الحاجة الى كانيبوس(نجم سهيل) وسيريس(الشعرة اليمانية) وشامات.

يمثل فشل الرابط الذهني في عمله وانتهاء العصر الذهبي إحداثاً غامضة. بتكلف واضح، يذكر السارد ان "السبب الرئيس في هذه الكارثة يكمن في المعنى الذي تنطوي عليه الكلمة الانكليزية (-dis aster=كارثة)، بمعنى حدوث خطأ في النجوم. وفق ما تقدم، تغير اسم الكوكب من روهاندا المثمرة الى شيكاستا المذعورة. ان التحول في التكوينات الفلكية تؤكد ضرورة اخلاء العمالقة، فالشامات الحسودة الغيورة التي لا تفلح الا وسط الفوضى والاضطراب، تعمل حالياً على قدم وساق. بعض العمالقة يقاومون الاخلاء بينما ينسى الارضيون سريعاً ولاءهم للقانون الكانوبي فيرتدوا الى اصولهم الوحشية. وسرعان ما تُنسى الاسرار القديمة، وتفسح الحقبة ما قبل التأريخية المجال لظهور التأريخ المسجل، ويزداد جنوح شيكاستا سوءاً. وبعد مضي عدة الاف من السنين، تبلغ الازمة ذروتها- حقيقة بالكاد تثير دهشة القارئ المتمرس لروايات ليسنغ- في النصف الثاني من القرن العشرين. على الرغم من ذلك، شهدت شيكاستا في تلك الايام المظلمة من الغضب الفاشستي المحدث والفوضى الدولية وكوارث التلوث وحروب العالم الثالث، ظهور العلامات الاولى للاستيقاظ من الكابوس طويل الامد لما يُسمى بالحضارة. وهذه العلامات، في (المذكرات) و(الهبوط) و(المدينة ذات الابواب الاربعة) نشأت من التجمعات الغريزية والاساسية للأفراد الذين اكتشفوا اشتراكهم في تجارب رؤيوية يتأمر المجتمع التقليدي للقضاء عليها. وهنا ينبغي ان نتذكر انه في سلسلة (اطفال العنف)، تضفي ماركسية ليسنغ اهمية شديدة على نشاطات زمرة سياسية صغيرة، هي الحزب الشيوعي الزامبي، على اساس انهم يمثلون طليعة الوعي السياسي في ظل الكولونيالية. في رواياتها اللاحقة، استبدلت ليسنغ المجموعة الصغيرة من العسكريين السياسيين بانواع اخرى من الطليعيين: مجموعة من العارفين او المتنورين. ونظراً لأستعارتي عبارة من روائي كتبت عنه ليسنغ بأعجاب شديد، اقترح تسمية مجموعة كهذه كاراس. الكاراس، كما بن السارد، في رواية كيرت فونغوت الاب، (مهد القطة) (١٩٦٣) احد انواع الفرق التي ينتمي اليها الافراد الضائعون الذين لا تربطهم ببعضهم أي صلة تذكر. يتولى الرب تنظيم عمل هذه الفرق لتحقيق ارادته دون معرفة افرادها بطبيعة ما يفعلونه. الا ان بأمكان المرء ان يتعرف، بطريقة ما، على زمالئه في الفريق الذي ينتمي اليه. ولذا، وجد بعض افراد عائلة كولدريج، في (المدينة) انفسهم يعملون معاً، غريزياً، بأساليب تمكنهم من النجاة من المجزرة القادمة. مارثا التي تعاني ازمة هوية الكاراس الذي ينتمي اليه كولدرج، وهنا نشأت الهواجس الداخلية المخيفة التي دفعتها الى العيش معهم. (الجلسة) وصف لكاراس اخر وثمة كاراس اخر في (المذكرات). في (شيكاستا) يسعى المبعوث الكانوبي جوفور، الى ممارسة الضبط الواعي على كاراس يضم افراده الناجون من عائلة كولدرج. المهمة الرئيسة التي يود افراد هذا الكاراس اداءها هي تنشئة جيل جديد من الاطفال ذوي القدرات الخاصة. هؤلاء الاطفال هم ثمرة التغيار الاحيائي للجنس البشري، انهم نسخ للأنواع الجديدة التي كلفت بمهمة استعادة الرؤية العقلية لشيكاستي العصر الذهبي. بلا اوامر او خطط مكتوبة تعينهم، يبدأ هؤلاء الافراد بأعادة بناء المدن الهندسية القديمة.

وبذا، يتألف التأريخ الارضي لدوريس ليسنغ من العصر الذهبي والسقوط، ونمو الحضارة الشريرة التي ستدمر نفسها في نهاية الامر، ليعقبها نوع من النشور او البعث. ان المسيحية الموروثة لهذا النظام بالكاد فلتت من انتباه ليسنغ رغم ميلها الى تبني الفواقم الاشد مسكونية (عالمية) تجاه مسألة أنه ليس ثمة "سوى كتاب واحد في الشرق الاوسط" (مقدمة الى شيكاستا). واذا استثنينا أليات القصص الفضائية التي وظفتها ليسنغ مثل الامبراطوريات المتصارعة والعمالقة الطيبون والمبعوثون المتخفون، فأن ما يتبقى هو المسيحية الاخروية الى جانب الدور الذي يؤديه الكاراس الذي يجسد بوضوح التزام ليسنغ بمناهج الصوفية. ويتوكيدهم الحدس الروحي اكثر منه العقيدة واستخدام الحكاية الرمزية اكثر منها الكتاب المنهجي او كتب التعاليم الدينية، يميل الصوفيون الى ادراج انفسهم في خانة الذخيويون، هذا اذا لم يؤلفوا جماعة سرية (رغم كون الماسونية احد المؤسسات الاوروبية التي يدعون رعايتها). تقتبس ليسنغ من منهج الارتقاء الصوفي في احد مقولاتها البليغة في (المدينة)، وهذا هو عذري للأستشهاد به في هذا المقال "يؤمن الصوفيون، بأرتقاء الانسانية، بطريقة معينة، الى مصير ما. نحن جميعاً نشارك في ذلك الارتقاء. فالاعضاء لديهم شيء ملموس وحقيقي يشتكون منه. ربما لم يكن زواجاً سيئاً بعد كل ذلك؟ ثمة زواجات لا تحصى حيث الزوج والزوجة منحرفين وخاطئين في اعماقهما، ومع ذلك فهما منسجمان تماماً ومناسبان لبعضهما، اذ يجعل كل منهما الاخر تعيساً بالاسلوب الذي يؤديانه، بالاسلوب الذي يتطلبه نمط حياتهما."

وعلى الرغم من صعوبة الادلاء بتصريحات جريئة كهذه قبل فرويد، ليس ثمة شك في تأتي للوجود بفعل الحاجة الى اعضاء رؤيوية يتأمر المجتمع التقليدي للقضاء عليها. وهنا ينبغي ان نتذكر انه في سلسلة (اطفال العنف)، تضفي ماركسية ليسنغ اهمية شديدة على نشاطات زمرة سياسية صغيرة، هي الحزب الشيوعي الزامبي، على اساس انهم يمثلون طليعة الوعي السياسي في ظل الكولونيالية. في رواياتها اللاحقة، استبدلت ليسنغ المجموعة الصغيرة من العسكريين السياسيين بانواع اخرى من الطليعيين: مجموعة من العارفين او المتنورين. ونظراً لأستعارتي عبارة من روائي كتبت عنه ليسنغ بأعجاب شديد، اقترح تسمية مجموعة كهذه كاراس. الكاراس، كما بن السارد، في رواية كيرت فونغوت الاب، (مهد القطة) (١٩٦٣) احد انواع الفرق التي ينتمي اليها الافراد الضائعون الذين لا تربطهم ببعضهم أي صلة تذكر. يتولى الرب تنظيم عمل هذه الفرق لتحقيق ارادته دون معرفة افرادها بطبيعة ما يفعلونه. الا ان بأمكان المرء ان يتعرف، بطريقة ما، على زمالئه في الفريق الذي ينتمي اليه. ولذا، وجد بعض افراد عائلة كولدريج، في (المدينة) انفسهم يعملون معاً، غريزياً، بأساليب تمكنهم من النجاة من المجزرة القادمة. مارثا التي تعاني ازمة هوية الكاراس الذي ينتمي اليه كولدرج، وهنا نشأت الهواجس الداخلية المخيفة التي دفعتها الى العيش معهم. (الجلسة) وصف لكاراس اخر وثمة كاراس اخر في (المذكرات). في (شيكاستا) يسعى المبعوث الكانوبي جوفور، الى ممارسة تنشئة جيل جديد من الاطفال ذوي القدرات الخاصة. هؤلاء الاطفال هم ثمرة التغيار الاحيائي للجنس البشري، انهم نسخ للأنواع الجديدة التي كلفت بمهمة استعادة الرؤية العقلية لشيكاستي العصر الذهبي. بلا اوامر او خطط مكتوبة تعينهم، يبدأ هؤلاء الافراد بأعادة بناء المدن الهندسية القديمة.

وبذا، يتألف التأريخ الارضي لدوريس ليسنغ من العصر الذهبي والسقوط، ونمو الحضارة الشريرة التي ستدمر نفسها في نهاية الامر، ليعقبها نوع من النشور او البعث. ان المسيحية الموروثة لهذا النظام بالكاد فلتت من انتباه ليسنغ رغم ميلها الى تبني الفواقم الاشد مسكونية (عالمية) تجاه مسألة أنه ليس ثمة "سوى كتاب واحد في الشرق الاوسط" (مقدمة الى شيكاستا). واذا استثنينا أليات القصص الفضائية التي وظفتها ليسنغ مثل الامبراطوريات المتصارعة والعمالقة الطيبون والمبعوثون المتخفون، فأن ما يتبقى هو المسيحية الاخروية الى جانب الدور الذي يؤديه الكاراس الذي يجسد بوضوح التزام ليسنغ بمناهج الصوفية. ويتوكيدهم الحدس الروحي اكثر منه العقيدة واستخدام الحكاية الرمزية اكثر منها الكتاب المنهجي او كتب التعاليم الدينية، يميل الصوفيون الى ادراج انفسهم في خانة الذخيويون، هذا اذا لم يؤلفوا جماعة سرية (رغم كون الماسونية احد المؤسسات الاوروبية التي يدعون رعايتها). تقتبس ليسنغ من منهج الارتقاء الصوفي في احد مقولاتها البليغة في (المدينة)، وهذا هو عذري للأستشهاد به في هذا المقال "يؤمن الصوفيون، بأرتقاء الانسانية، بطريقة معينة، الى مصير ما. نحن جميعاً نشارك في ذلك الارتقاء. فالاعضاء لديهم شيء ملموس وحقيقي يشتكون منه. ربما لم يكن زواجاً سيئاً بعد كل ذلك؟ ثمة زواجات لا تحصى حيث الزوج والزوجة منحرفين وخاطئين في اعماقهما، ومع ذلك فهما منسجمان تماماً ومناسبان لبعضهما، اذ يجعل كل منهما الاخر تعيساً بالاسلوب الذي يؤديانه، بالاسلوب الذي يتطلبه نمط حياتهما."

وعلى الرغم من صعوبة الادلاء بتصريحات جريئة كهذه قبل فرويد، ليس ثمة شك في

دوريس ليسنغ حياة مهنية استثنائية، فالرواية الانكليزية منذ الحرب العالمية الثانية لربما بدت اقل اشراقاً وغنىً من دونها، فأعمالها ستبقى معلماً بارزاً في المشهد الادبي لا في بلادها حسب، وانما في العالم اجمع، خاصة بعد حصولها المستحق على جائزة نوبل للاداب.

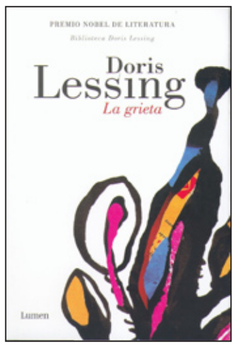

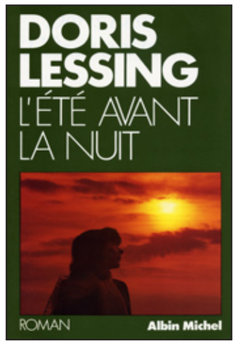

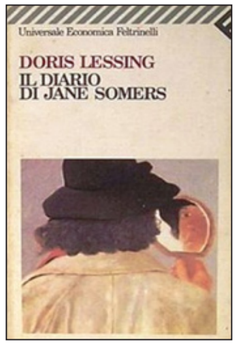

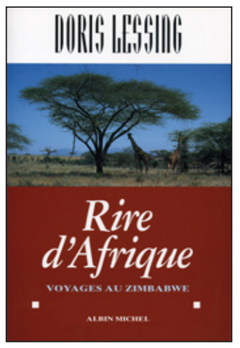

في هذا المجال ما حققته روائع الواقعية الكلاسيكية. ربما ما زالت اكثر نضجاً واستعداداً للتفكيك النقدي من هذه الروائع. فغالبية القصص المنفصلة التي تسردها الرواية، في اجزاء "النساء المتحررات" مثلاً والمدونات المتنوعة، تعاني نواحي قصور واضحة. "النساء المتحررات" حيث يطلق تومي النار على نفسه بعد قراءة مدونات انا، هي مليودراما عائلية صغيرة، كما ان علاقة الا وبول في قلب "المدونة الصفراء" مشحونة بفنطازيا المجلات النسوية (الكوزموبوليتية او وفق اسلوب الفتاة اللعوب، البليغيل) وهكذا، من حين لاخر، يتدخل الراوي لرثاء نواحي الضعف والقصور في هذه القصص، وليذكرنا بعدم دقة وموثوقية السرد القصصي. تعد الفكرة القائلة ان تجميع النص والتعليق عليه يسهم في اثراء مجموع الاجزاء فكرة جذابة تماماً، ولكن وبعد قراءتها لعدة مرات، شعرت انها مجرد وهم. هذا لا يعني القول بخلو (المفكرة الذهبية) من لحظات البراعة الخلاقة. فسلسلة فندق ماشوبي نبرة الصوت التي قيلت بها. انها نبرة سارد القرن التاسع عشر الواثقة- ربما تولستوي او جورج اليوت او شارلوت برونتي- والى هذا التراث الروائي تحديداً تنتمي روايات ليسنغ الى حد (اطفال العنف). الا ان التراث الواقعي الذي استهوى ليسنغ بفعل غرائزها الخلاقة وعقيدتها الماركسية، اضحى ينطوي على اشكالية عميقة بالنسبة لها. في هذا السياق، تمثل (المفكرة الذهبية) اعترافاً من ليسنغ انه بمواجهة المجتمع والوعي المتشظيين في الحياة المعاصرة، فأن التساوق والرؤية الشاملة اللتان ميزتا رواية القرن التاسع عشر لم تعد خصائص محتملة. ولذلك، فانتقالة جديدة تبدو ضرورية. تعد (المفكرة الذهبية) وهي الاشهر بين روايات ليسنغ حالياً، سلاحاً اسطورياً في ترسانة "تنشئة الوعي" بشأن القضايا السياسية والتحليل النفسي والغمنستية والبُنى القصصية. وليس ثمة شك في اهمية الرواية وموقعها في الارث الروائي المعاصر، ولكنني لاحظت غياباً للأتفاق ملفتاً للأنتباه، وربما حتى للنقاش الجاد حول نجاحها الفني. حقيقة، عادةً ما عُد هذا النجاح من المسلمات البديهية، وتم تأكيده في فيلم وروايات غير مباشرة. اما حقيقة تمثيلها تجميعاً موزاييكياً لأجزاء متشظية رائعة فتعتمد دليلاً مائلاً لا على طبيعتها الغرائبية المتفردة حسب، وانما مصداقيتها الفائقة ازاء الروايات المعاصرة وبضمنها روايات ليسنغ الأخر. ولذا، لا يمكن للمرء ان يعرض احكامه القيمة بشأنها سوى ببعض الترديد والخوف. (المفكرة الذهبية) بلا شك تقف معلماً بارزاً في مسيرة انتشار الوعي الذاتي القصصي في الرواية البريطانية المعاصرة. انها بحق مثال لما يمكن ان نطلق عليه التفكيك الخلاق. رغم ذلك، فهي ليست الرواية التي تقول الحقيقة كاملةً عن ذاتها، ولا يتعدى حدود انجازها نبرة الصوت التي قيلت بها. انها نبرة سارد القرن التاسع عشر الواثقة- ربما تولستوي او جورج اليوت او شارلوت برونتي- والى هذا التراث الروائي تحديداً تنتمي روايات ليسنغ الى حد (اطفال العنف). الا ان التراث الواقعي الذي استهوى ليسنغ بفعل غرائزها الخلاقة وعقيدتها الماركسية، اضحى ينطوي على اشكالية عميقة بالنسبة لها. في هذا السياق، تمثل (المفكرة الذهبية) اعترافاً من ليسنغ انه بمواجهة المجتمع والوعي المتشظيين في الحياة المعاصرة، فأن التساوق والرؤية الشاملة اللتان ميزتا رواية القرن التاسع عشر لم تعد خصائص محتملة. ولذلك، فانتقالة جديدة تبدو ضرورية. تعد (المفكرة الذهبية) وهي الاشهر بين روايات ليسنغ حالياً، سلاحاً اسطورياً في ترسانة "تنشئة الوعي" بشأن القضايا السياسية والتحليل النفسي والغمنستية والبُنى القصصية. وليس ثمة شك في اهمية الرواية وموقعها في الارث الروائي المعاصر، ولكنني لاحظت غياباً للأتفاق ملفتاً للأنتباه، وربما حتى للنقاش الجاد حول نجاحها الفني. حقيقة، عادةً ما عُد هذا النجاح من المسلمات البديهية، وتم تأكيده في فيلم وروايات غير مباشرة. اما حقيقة تمثيلها تجميعاً موزاييكياً لأجزاء متشظية رائعة فتعتمد دليلاً مائلاً لا على طبيعتها الغرائبية المتفردة حسب، وانما مصداقيتها الفائقة ازاء الروايات المعاصرة وبضمنها روايات ليسنغ الأخر. ولذا، لا يمكن للمرء ان يعرض احكامه القيمة بشأنها سوى ببعض الترديد والخوف. (المفكرة الذهبية) بلا شك تقف معلماً بارزاً في مسيرة انتشار الوعي الذاتي القصصي في الرواية البريطانية المعاصرة. انها بحق مثال لما يمكن ان نطلق عليه التفكيك الخلاق. رغم ذلك، فهي ليست الرواية التي تقول الحقيقة كاملةً عن ذاتها، ولا يتعدى حدود انجازها

التي تقع في زامبيا في فترة الحرب- وهي اعادة تنظيم للمواد الموظفة في اثنتين من روايات سلسلة (اطفال العنف) هما(موجة من العاصفة)و(الارض المحجوزة) -رائعة بمقدار روعة اعمال ليسنغ الأخر. وعلى نحو مماثل لحضورها اللافت للنظر والمتقطع في (اطفال العنف)- تبرز في هذه السلسلة وجهة النظر التشيخوفية غالباً عن تداعي المجتمع الاستعماري الابيض وانهياره، انهيار يجد التعبير الامثل له في المجموعة الصغيرة من الشيوعيين الشباب التي ينتمي اليها السارد نفسه.

في نهاية سلسلة فندق ماشوبي، تكتب انا في مدونتها ان "الشعور بالحنين يستبد بها." السلسلة تصور العبثية السياسية والاخلاقية لمجموعة من الثوريين الذين يبقون معاً مجرد انهم رفاق على الرغم من فقدانهم الايمان، الى حد كبير، بأهمية ما يقومون به- ومع ذلك ثمة ما يبرر هذا الشعور بالحنين لأنهم في نهاية المطاف لنهاية الحرب، ليس لهم خيار سوى تأجيل مواجهة مخاوفهم الداخلية. وعلى الرغم من الامتيازات التي يتمتعون بها في زامبيا، فأن حياتهم شبيهة بحياة السجناء في معسكر اعتقال فخم للغاية. فالسخرية والإستهزاء وتمثيل الادوار اموراً مألوفة تماماً اليهم.

كما ان استلهام ليسنغ البارع للتفاعلات والعلاقات التي تجمع افراد هذه المجموعة المتناقرين في طباعهم تلقي بظل غامض غير مدرك على الاجزاء الاخيرة من (المفكرة الذهبية)، التي تصور انا، المقيمة، حالياً في لندن،وهي تناضل بجد لأعادة بناء هويتها. الا تمثل تجاربها المتنوعة كشيوعية ومدونة وكاتبة من طراز رفيع ومريضة سايكولجية وناشطة اجتماعية وعاشقة وعشيقة فاشلة التي بلغت ذروتها في تجربة الانهيار النفسي، الا تمثل عدداً متزايداً من الادوار موازية من حيث عجزها عن الاقناع لدور "صديقة القائد" الذي أدته في فندق ماشوبي؟ (المفكرة الذهبية) هي أستكشاف للوعي المنهار والحياة المتشظية لبطلة محبطة عاجزة عن استخلاص أي معنىً لوجودها. ومع ذلك، فهذه ليست الطريقة التي يطلب منا قراءة الرواية بها، الرواية التي تسلط الضوء على احد عمليات الارتقاء النفسي الايجابية، وفي الآن عينه المبدئية والمؤلمة. لقد حاولت انا تجريب حياتها لغاية معينة، وهذه الغاية تتبدى للعيان في الجزء الختامي من "المفكرة الذهبية."

لدوريس ليسنغ حياة مهنية استثنائية، فالرواية الانكليزية منذ الحرب العالمية الثانية لربما بدت اقل اشراقاً وغنىً بدونها، فأعمالها ستبقى معلماً بارزاً في المشهد الادبي لا في بلادها حسب، وانما في العالم اجمع، خاصة بعد حصولها المستحق على جائزة نوبل للاداب. ان سمعتها ومكانتها الادبية تترسخ باضطراد. ان رواياتها من مثل المدينة، وهي خير رفيق للمرء فكرياً وعاطفياً ناهيك عن محاولاتها كتابة "قصص الفضاء" ستحظي بالمزيد والمزيد من القراء والمعجبين. بداهة، من السهل التركيز على نواحي القصور في اعمال كاتبة استثنائية مثل ليسنغ، الا ان التناقضات العميقة التي تسم رؤيتها وبراعتها السردية هما الخصائص التي ينبغي اخذها بنظر الاعتبار في تقييمنا النهائي لها. يندر ان تشعر ليسنغ بالطمأنينة والاقتناع بالادوات التي تستخدمها. انها روائية بالفطرة وقد كاد اختراقها للسواتر الدفاعية الاجتماعية والفردية ان تتحول الى بغض شديد للجنس البشري. وعلى الرغم من تبنيها الفلسفة اللاعقلانية في العقد الماضي، فأن نفاذ صبرها مع افراد الجنس البشري واقتناعها بوجود معيار ذا معنى يمكن ازاءه قياسهم بوصفهم "ذي منعة ضد العقل" او "ارتقوا على نحو معيب،" هما في واقع الامر افكار العقلاني المتطرف. ولذا، يطفوا على سطح البعض من اعمالها الاخيرة الشعور بالغضب والاستياء، انه الحنق الذي يستبد بالنبي الذي لا يجد من يصغي لرسالته مهما كان الشكل القصصي الذي يغلفها. قطعاً، ان تحولها بعيداً عن الواقعية في العقد الماضي ترك اثاراً سلبية وكذلك ايجابية مؤثرة. فشكل الرومانس في (مذكرات ناج) و(الزيجات بين مناطق ثلاث واربع وخمس)، قد حرر ما اسماه ارنولد به "السحر الطبيعي"، المشتبك في صراع دائم مع رغبتها بالقاء بيان سياسي وفلسفي مؤثر. في مضمار الفنطازيا، جمعت ليسنغ بين اهتمامها بالهلوسات وحالات الاحلام والفهم العميق للعلاقات البشرية نحو علاقة الزوج والزوجة والاب والطفل المميزة لأفضل رواياتها الواقعية. ومع ذلك، ينبغي رفع القبعة احتراماً لها لا بسبب مكانتها وحكاياتها الجدلية المحيرة، وانما لأجل قصص الرومانس المتقنة والمتساوقة التي تقف شامخة بين اقرانها مثل المدينة في الصحراء.

١- لويس مفورد،"اليوتيبيا: المدينة والمكانة"، (الطوباويون والفكر الطوباوي)، المحرر. فرانك أي. مانويل (سوفنير برس)،١٩٧٣، ص ٣-٢٤.

٢- ادريس شاه، (الصوفيون). لندن: دبليو. اچ. الن، ١٩٧٧، ص ٥٤.

٣- من المثير حقاً معرفة ما يفكر به الناقد القومي الاسود في زمبابوي اليوم بـ (اطفال العنف) ورواياتها الافريقية الاخرى. اعتقد ان (موجة من العاصفة) او (الارض المحجوزة) لم تعد مثار اعجابه وذلك لتناولها دور مارثا في الطليعة الثورية كناشطة طليعية ثورية. ان ما تجسده هذه الروايات بالنسبة له هو الانحطاط والتوهم الذاتي الداخلي التي عاني منها مجتمع المستوطنين البيض وبضمنهم العناصر الاشد تقدمية.

٤- الان وسالي لانسبرغ، (بحثاً عن الاسرار القديمة)، نيويورك: بانتام بوكس، ١٩٧٤، ص ١٨٥-٦.

هوامش المترجمة:

× الميغاليث: حجر غير منحوت استخدم في كثير من الآثار الراقية الى ما قبل التاريخ.

×× الدوريد: كاهن عند قدماء الانكليز.

المصدر: Critical Quarterly, vol ٢٢, number ٤, Winter ١٩٨٠

× المقالة منشورة في مجلة الثقافة الاجنبية العراقية، العدد الثاني لسنة ٢٠٠٨

ليزا اولارديس
ترجمة: هاجر العاني
عن الغارديان البريطانية

دوريس ليسنغ.. المعاكِسة الكبيرة

كتاب (المفكرة الذهبية) جعل من (دوريس ليسنغ) ايقونة معارضة مناصرة للمساواة بين الجنسين في عام ١٩٦٢ غير ان أعمالها الكثيرة مذاك قد أذهلت مريديها وليست روايتها الاخيرة بالاستثناء عن هذه القاعدة. تقول (دوريس ليسنغ) " لا اعتقد ان الامر يلائم أي مكان على الاطلاق بوجود رواياتي الاخرى " عن كتابها الاخير الذي يجعل مجموع كتبها اكثر من (٥٠) كتاباً، وكتاب (The Cleft) قد ألهمها به " تقرير علمي يدّعي ان النساء كنّ الاصل البشري الاساسي وان الرجال جاءوا معهن متأخرين بكثير ؛ على حد قولها، ويأتي عنوان الكتاب من قول مقتبس عن الملكة اليزابيث الاولى تشير فيه الى انها لو كانت ولدت ذكراً وليست أنثى (" لما كان الوردات سيعاملونني هكذا")، فعالم النساء يتمزق عندما تلد احداهن "مسخاً "، المسمى هكذا بسبب الرزمة "القبيحة" من النتوءات والاورام، والامر ليس دعابة، اذ ان (ليسنغ) مشهورة بأشياء كثيرة الا ان حس الدعابة ليس احد تلك الاشياء.

ملتفة على نفسها بيننا – ويتكشف الجانب الاكثر وداعة في ليسنغ في حبها للقطط التي ألّفت عنها كتابين، وقد لاحظ صحفي أجرى مقابلة معها في مطلع الثمانينيات أنها "بُخيّم" في بيتها الخاص بها والغرفة الآن ملفّعة بسجاجيد وأغطية بضعة عقود من التخييم، اما مصطبة ويست هامبستيد الطويلة حيث تقيم مع ابنها المتوسط العمر من زواجها الثاني فربما تدعمها فقط ابراج من الكتب (سيرة جديدة لفنان وأخرى عن ستالين وصحيفة النيويورکر الموجودة في أقرب كومة مني).

ورغم أنه قد تكون ثمة نفحة من مبدأ المساواة بين الجنسين التطوري لعقد السبعينيات بشأن كتابها الاخير، الا أنه يوجد القليل هنا ليُبهج اولئك الذين يشعرون بأن مؤلفة كتاب (المفكرة الذهبية) قد تخلت عنهم، فـ" الاناث الاكبر سناً " مخلوقات كسولة غبية في حين ان الشابات أكثر فضولاً (في الاقل جنسياً) لكنهن يُظهرن غريزة ملائمة للاعمال المنزلية والعناية بالاطفال، وفي الوقت ذاته يُسبغ على الرجال نعمة الميل الفطري للمغامرة والاكتشاف، ولا عجب أن يتعارض مناصرو مساواة الجنسين، وتقول الكاتبة بضراوة " ما كنت أوحيه بمجيء الذكور هو ولادة روح فضول وتساؤل جديدة تماماً مما يبدو لي أمراً جائزاً، فالرجال متململون مغامرون بينما النساء حذرات على الرغم مما تقوله الايديولوجية الراهنة، وبالطبع الرجال والنساء مختلفون عن بعضهم، ولا يمكنك الفرار من حقيقة ان النساء يشكّلن سنواتك الخمس الاولى سواءً شئت أم أبيت، ولا يمكنني القول أن ذلك يعجبني كثيراً".

والأم شخصية متناقضة فهي حامية ومعذبة، ففي كل موضع من رواية ليسنغ تعكس علاقتها المضطربة بوالدتها حيث كانت في " هروب عصبي " منها على الدوام، واحدى ذكرياتها الواضحة عن طفولتها كان جلوس والديها أمام المنزل تظللهم سحابة من الاستياء ودخان السجائر وهما مقيّدان معاً بحياة خيبة الامل والفقر المتكلف اللذين وجدوا أنفسهم فيهما في روديسيا الجنوبية، وأصبح "لن، لن، لن أكون هكذا" هو شعار مراهقتها، وفي الواقع يمكن فهم الكثير من مطلع حياتها على أنه سلسلة من حالات الهروب طارحةً جلودها تماماً كأفعى في الاجمة.

وموجز حياتها – وهو الطفولة الافريقية والزيجتان والاطفال المتروكون والرحلة الى لندن وصعودها لتصبح واحدة من أهم الشخصيات في أدب ما بعد الحرب – سيكون معروفاً للقراء، وهكذا أيضاً ستكون رحلتها الايديولوجية والروحية من الشيوعية عبر الطب النفسي الى المذهب الباطني××، وقد وثّقت كلا الامرين بشكل كامل، ليس فقط في مذكراتها – كتابي تحت جلدي (الى عام ١٩٤٩) والسير في الظلال (للفترة بين عامي ١٩٤٩ و١٩٦٢) – بل كذلك في أدبها القصصي، من رواية الحشائش تغنّي (عام ١٩٥٠) وهي قصة عن الظلم العنصري المتواصل في روديسيا، عبر سلسلة "أطفال العنف" (هي اكثر رواياتها تعلقاً بالسيرة الذاتية والمعروفة بشكل أفضل بإسم كتب (مارثا كويست))، وحتى الروايات المتأخرة مثل الحب، من جديد (عام ١٩٩٦) والجدّات (عام ٢٠٠٣)، من دون ان نغفل المفكرة الذهبية في عام ١٩٦٢.

وبدلاً من اكمال الحلقة الاخيرة من سيرتها الذاتية فقد ألّفت كتاب أعذب حلم عام ٢٠٠١، وهي تصرّ على أن هذا ليس "سيرة ذاتية مؤرّخة في قالب رواية" بل هو محاولة "لإسترداد روح "الستينيات وخاصةً تجربتها الخاصة كـ "مدبرة منزل" فاتحةً منزلها للضالين والمشردين، وتقول "أعتقد أنني حسبت الوقت حساباً صحيحاً، اي الجو العام "وتضيف قائلة" لم أدخل الاشخاص الحقيقيين لأنهم كلهم الآن في مُنتصف العمر او كهول وبعضهم مشهورون فعلاً"، وهي لا تزال لا تقشي الاسرار، اذ تقول "يا إلهي، كلا "مضيفةً بضيق:

"لإنه أمر يدعو الى الاسف.. الاسف الشديد".

ولدت ليسنغ بإسم (دوريس تايلر) في ايران عام ١٩١٩ لوالدين كانت الحرب العالمية قد أنزلت بهما أدنى بالغاً اذ فقد والدها ساقه وفقدت والدتها حب حياتها، وقد انتقلوا الى روديسيا عندما كانت دوريس في الخامسة من العمر، وطبقاً لما تورده ليسنغ بالنسبة لروائية " لا يمكنك ان تتمتعي بتوليفة اكثر حظاً "من مواقف" بريطانية بافراط الى حد بعيد" تخص والديها و" العين الاخرى" حيث تتوفر النشأة في بلد آخر، وبينما كانت تحب التجوال في ارجاء الاجمة والمساعدة في الحقل كانت قارئة شغوفة وكان البيت مليئاً بالكتب التي كانت والدتها تطلبها من لندن، وتقول "كانت لدي حياتان مختلفتان وهما ما أقرأ عنه وما كان حولي، فإذا نشأت في روديسيا الجنوبية يمكنك قراءة اعمال ديكنز واجراء المقارنات، وليس ثمة كبير اختلاف بين (اوليفر تويست) وصبي أسود لا يحصل على ما يكفيه من طعام"، وقد أعلنت نيتها في ان تكون كاتبة في مهجعها في الدير عندما كانت في سن الحادية عشرة، وفي سن الرابعة عشرة تركت المدرسة في اجازة مرضية ولم تعد اليها، عائدةً الى البيت مع والدتها لتقرأ، وتقول " لم يكن لدي اي تعليم مناسب اومؤهلات مناسبة لذا كان ينبغي ان اكون كاتبة، ماذا كنت لأفعل غير ذلك؟" وبعد بضع سنوات هربت لتعمل في بداية الهاتف في سالزبري وغاصت بشكل سائغ في عالم الشرب والتدخين والمشاركة في الحفلات بشكل مسرف، وسرعان ما تزوجت من (فرانك وزدام) وهو موظف حكومي كان مديرها لـ(١٠) اعوام والذي أنجبت منه طفلين، وتفاقمت الامور بين المحبين وهي واثقة من أنها لو بقيت لكانت ستنتهي مدمنة على الخمر، وقد كتبت عن هذه الحقبة تقول "ليس ثمة سأم كذلك الذي تشعر به امرأة ذكية تقضي كل يومها مع طفل صغير جداً".

وجاء هروبها هذه المرة في شكل تدفق على سالزبري من المهاجرين الاوربيين فارّين من النازيين وتقول "كان أغلبهم ولكن ليس كلهم يهوداً وكان الكثير منهم مفكرين، لقد كان تأثيرهم كبيراً جداً فقد ثقّفوني"، وقد أصبحت سياسية كما تقول في سن الرابعة والعشرين مقايضةً حفلات الشاي ينادي الكتاب اليساري وصحيفة (الاوبزرفر) بصحيفة (نيوستيتمان) و(وزدام) بـ(غوتفريد ليسنغ) وهولجئ وشيوعي المانى، ورغم أنهما ربما كانا متلائمين تلاؤماً جيداً من الوجهة السياسية الا ان حياتهما الجنسية كانت بائسة، اذ اعترفت قائلة ان الزواج "ليس أحد مواهبي".

وقبل ان تبلغ الثلاثين وجدت نفسها على متن مركب متجه نحو انكلترا تاركةً خلفها زيجتين ورضيعاً ومعها حقيبة سفر مليئة بملابس غير لائقة والكثير من الكتب و(١٠٠) جنيه استرليني ومخطوطة رواية (الحشائش تغني)، كما خلّفت ابنا وبنتا من زواجها الاول وهي تقول الآن "هذه الاشياء موجودة في مؤلفاتي فلماذا تسألينني؟" مؤرّخةً مقدماً الاسئلة التي طاردتها مذاك والى الآن، وتقول "لم أود وضع نفسي في هذا المستوى ولكن عندما وضع (روسو) اولاده في دار رعاية فعل ذلك بأفضل ضمير ممكن فقد قال: ستتم تنشئتهم تنشئة أفضل بكثير لأنه أنظروا الي، أناوضعي سيء جداً وقد قررت هذا قبل أيام وأنا منذهلة، وفي الاقل أنا خجلة من الاكاذيب التي قلتها لنفسي".

وربما كانت لندن ما بعد الحرب مكاناً قاسياً بالنسبة لأم عزباء شابة بيد ان نجاحها الادبي المتزايد عرّفها الى مجموعة من كتّاب وفنانين بوهيميين كانوا يتسكعون في حي سوهو بلندن، وتقول الكاتبة في ذلك "لقد كان وضعاً جذاباً جداً وظريفاً جداً ورائعاً، وكنت أتواجد هناك عصر كل يوم وكنت مستغرقة، ولسوء الحظ كانت لدي مسؤولية ميؤوس منها فلم أكن استطيع الخروج ليلاً ولم أكن استطيع تحمل تكاليف جليسات الاطفال، الحمد لله".

وهي تمانع في قول الكثير عن أكبر عاملين مؤثرين على حياتها وهما الشيوعية والصوفية، فهي تقول بفظاظة عن الاول" حسناً، لقد كان ذلك خطأً كبيراً، أليس كذلك؟" بيد أنها تمضي في حديثها لتضيف متحدثة عن مدى تمتعها بالـ (روك اند رول) الذي كان يقدمه (توم ستوبارد) اذ تقول " في الليلة التي ذهبت فيها كان المسرح مملوءاً بالتمام بالشيوعيين المستّين، وقد تمكنت من التعرف على الجميع، لقد كان أمراً مسلياً جداً، لقد كانت هناك هذه اللحظة الرائعة حينما تنظر احدى الشخصيات الى شيوعي مسنّ ويقول لقد كنتُ مخطئاً في كل شيء تعرفه، كل شيء، لقد كان أمراً رائعاً، وحتى الشيوعيون المسنون وهي تصفق بحماس صفقوا استحساناً"، ورغم أنها ترفض الكليشيه القائلة ان بامكان رواية ان تغير حياتك – اذ تقول "الناس مستعدون للتفكير بشكل مختلف" – الا ان كتاب (الصوفيون) لـ(ادريس شاه) والذي اكتشفته في عام ١٩٦٤ كان له تأثير عميق عليها وعلى أدبها القصصي مما حثّ ظهور روايات (نجم سهيل – Canopus) الغامضة، حيث تقول "يعتقد معظم الناس أنه شحنة من الجوارب القديمة غير انه كتاب رائع".

وهي تخطط لتبدأ العمل في الحال بروايتها التالية التي تصر على أنها ستكون آخر رواياتها وتقول "أنا بالفعل أعتقد أن ما يكفي معناه كفى، فأنا أشعر بأنني عشت لفترة اطول مما ينبغي، فأنت تمضين هكذا... أنا انظر الى هذه السنوات...سنوات..... وسنوات عشت خلالها". خلال تلك السنوات من الكتابة واعطاء التفسيرات الخاصة والمحاضرات واجراء المقابلات هل هنالك ما لم يُسأل عنه او لم يُقل؟ فتجيب "عزيزتي في سني هذه هنالك كل أنواع الامور التي لا يمكنك قولها لأي شخص لأنها أمور مدمّرة تماماً الى حد بعيد اذ لا تستطيعين ذلك مهما حدث".

× القدوس: طائر بحري كبير.
×× (او التصوف): الايمان بأن المعرفة المباشرة بالله او بالحقيقة الروحية يمكن ان تتم للمرء عن طريق التأمل او الرؤيا او النور الباطني وبطريقة تختلف عن الادراك الحسي العادي او اصطناع التفكير المنطقي. (قاموس المورد).

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
ديار خالد

التصحيح اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

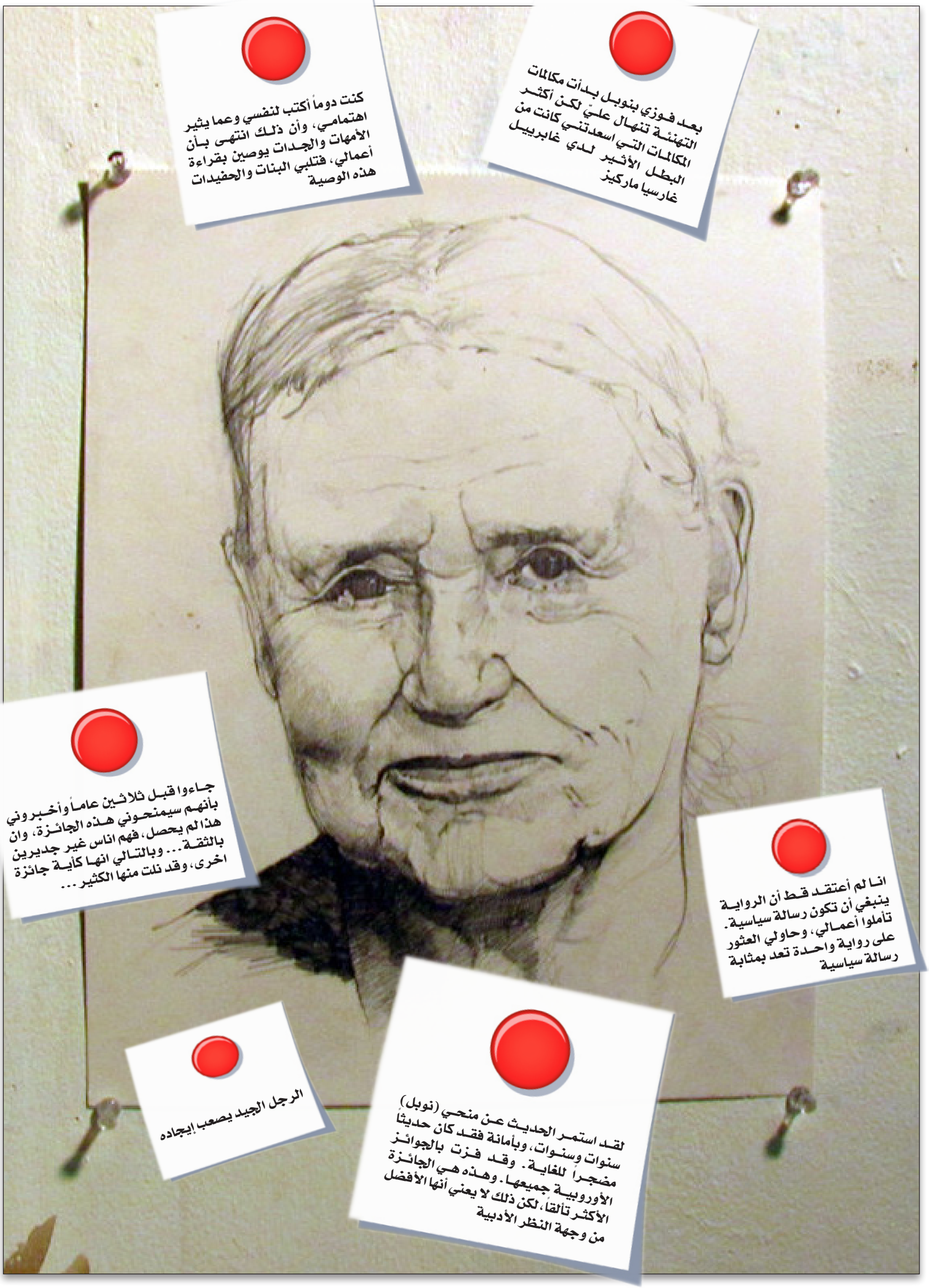

بعد فوزي بنوبل بدأت مكالمات التهنئة تنهال عليّ لكن أكثر المكالمات التي اسعدتني كانت من البطل الأثير لدي غابرييل غارسيا ماركيز

كنت دوماً أكتب لنفسي وعما يثير اهتمامي، وأن ذلك انتهى بأن الأمهات والجدات يوصين بقراءة أعمالي، فتلبي البنات والحفيدات هذه الوصية

جاءوا قبل ثلاثين عاماً وأخبروني بأنهم سيمنحوني هذه الجائزة، وان هذا لم يحصل، فهم اناس غير جديرين بالثقة... وبالتالي انها كأية جائزة اخرى، وقد نلت منها الكثير...

انا لم أعتقد قط أن الرواية ينبغي أن تكون رسالة سياسية. تأملوا أعمالي، وحاولي العثور على رواية واحدة تعد بمثابة رسالة سياسية

الرجل الجيد يصعب إيجاده

لقد استمر الحديث عن منحي (نوبل) سنوات وسنوات، وبأمانة فقد كان حديثاً مضجراً للغاية. وقد فزت بالجوائز الأوروبية جميعها. وهذه هي الجائزة الأكثر تألقاً، لكن ذلك لا يعني أنها الأفضل من وجهة النظر الأدبية